

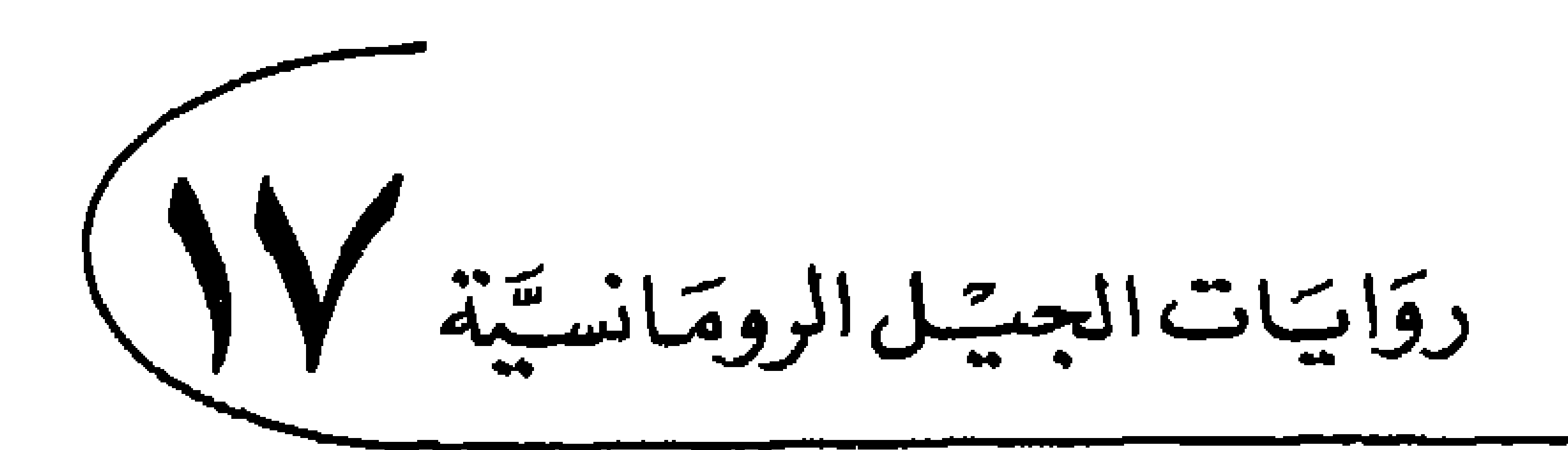
قيثارة

تأليف
مجدي صابر

بنت البلد

بنت البلد





بنت البلد

تأليف

مجدي صابر

الطبعة الأولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

صفقة . . . زواج

توقف رتل السيارات الفاخرة أمام أسوار المقبرة ، وقد تلبد وجه السماء بغيوم متجهمة تنذر بمطر شديد . . وتقدمت الركب سيارة سوداء كبيرة حملت في جوفها جثمان الفقيد واخترقت أسوار المدفن الكبير .

وهبط من السيارات العريضة عدد قليل من المشيعين في ملابس سوداء . . ووقفوا في انتظار عمال عربة نقل الموتى وهم يحملون صندوق الفقيد الى داخل المقبرة ، التي كتب في مدخلها بالإنكليزية «مقابر المسلمين بمدينة «نيويورك»» .

مسحت «جينا» دمعة ترقرقت في عينيها وقد زادها رداؤها الأسود جمالا وفتنة . ففي الصباح الباكر عندما علمت بنبأ وفاة والدها في المستشفى المركزي كانت تبدو أكثر تماسكا . وأحست بالراحة وهي تلقي عليه نظرة وهو مسجى في فراشه

الأخير. كان وجهه يبدو شاحبا بعض الشيء، ولكن ثمة ابتسامة آمنة كانت تجلل ملامحه، برغم جسده الذي أصابه هزال شديد في الأسابيع الأخيرة.

وقال الطبيب لها: لقد توفي بلا ألم.. وأعتقد أن الأمر كان مريحا بالنسبة لتدهور حالته ويأسنا من العلاج.

لم تبك لحظتها بل شعرت بكثير من الراحة، فمشهد والدها المريض الممدد فوق فراشه لشهور طويلة كان يعذبها.. خاصة وقد كان رجلا قويا لم تجبره العواصف والكوارث أن يحني رأسه أبداً.

وتمنت في أوقات كثيرة أن يريحه الموت من آلامه. وهي عاجزة عن أن تفعل له شيئا بعد أن تسلل اليه المرض اللعين وراح ينخر في عظامه.

وفي تلك اللحظة فقط بدأت تشعر بمصابها الفادح. لم يكن والدها فقط، بل كان كل عالمها.. كانت وحيدة لا تنتمي إلا له. بلا أخ أو أم أو قريب. وهو لم يدخر وسعا في أن يوفر لها كل أسباب السعادة.. تاركا لها في النهاية ملايين الدولارات وشركة ضخمة للإستيراد والتصدير.

وربت شخص على كتفها قائلا: تماسكي.. فقد كان

الفقيد غاليا علينا جميعا . . ولكن لا مهرب من الموت في النهاية .

كان الصوت لا يحمل رنة انفعال أو حزن . .

واستدارت تواجه «كلينتون» شريك والدها وفي عينيها نظرة حزينة . . فهمس مواصلا: في الأيام الأخيرة تمنينا له جميعا الراحة . . ولقد مات دون آلام لكي لا يصيبنا بالمزيد من الأحزان . . ومن حسن الحظ أن مرض والدك الطويل أتاح لك الاطلاع على كل أعماله حتى لا تتعرض شركتنا لهزة بهذه الوفاة .

أومأت «جينا» برأسها في صمت . . كانت دائما تفكر بطريقة عملية ، وقد أدركت أن البكاء لن يجدي .

وأقبل رجل معمم في رداء طويل يحتفظ تحت إبطه بنسخة من القرآن الكريم . . فحدّق «كلينتون» بـ«جينا» متسائلا في دهشة .

فقالت في لهجة خافتة: كانت رغبة والدي الأخيرة ان يتلو أحد القراء آيات من القرآن الكريم على قبره أثناء دفنه . . وقد اتصلت بالمسجد القريب ليرسلوا لنا شخصا يقوم بذلك .

ورفعت عينين سوداوين بلون الليل مواصلة: كانت رغبته الأخيرة . . ولم يكن باستطاعتي رفضها حتى وإن لم أفهم الفائدة منها .

هز «كلينتون» رأسه في صمت . .

وبدأ القارئ يتلو آيات الذكر الحكيم . . ووقف الحاضرون كأن على رؤوسهم الطير . . كان صوته رخيما عذبا . . ولكن عقل «جينا» كان مشغولا بأشياء أخرى كثيرة .

وأخيرا تمت مراسم الدفن .

ووقفت «جينا» تتقبل العزاء من الحاضرين . . وتقدم أحد موظفي الشركة بباقة ورد فتناولتها منه ووضعتها فوق القبر ، وغمغمت في صوت خافت: فلترقد في راحة وسلام يا أبي .

وفي اللحظة التالية انفتحت أبواب السماء عن مطر غزير ، فهرع الواقفون نحو سياراتهم ، يحتمون بها من المطر الذي تحول الى كرات صغيرة من الثلج بعد قليل ، غير عابئين بمشاعر ابنة الفقيد .

وخطت «جينا» صوب سيارتها الفاخرة الكبيرة . . وألقت نظرة فاحصة في مرآة السيارة . . وكان وجهها شاحبا مرهقا وقد بللته مياه المطر . . وفكرت في أن قليلا من وسائل التجميل ستعيد إليها رونقها . وبالرغم من أن الملابس السوداء أظهرت جمال بشرتها القمحية اللون ، فقد فكرت في أن اللون الأسود لا يناسبها على الإطلاق .

* * *

وضع «كلينتون» مجموعة من الدفاتر والأوراق فوق مكتبه أمام «جينا» قائلا: ها هي كل حسابات شركتنا . . وأي استفسار آخر ستجدين الرد عليه في مكتب المحاسب الخاص بنا . ووقف يحدق فيها باسماً . . كان برغم سنواته التي تعدت الخمسين يبدو أكثر صحة وشبابا من آخرين في الثلاثين . . وكان رياضيا ممشوق القوام يبدأ يومه في السادسة صباحا بالجري حول أسوار منتزه «فينوبارك» في «نيويورك» . أما شاربه وعيناه الزرقاوان فكانا يضفيان عليه رجولة ووسامة تفسران سر جاذبيته الطاغية بالنسبة للنساء، ومغامراته العديدة معهن .

وأشعل «كلينتون» سيجارا فاخرا نفث دخانه وهو يقول: وأنا على استعداد أيضا للإجابة على أي سؤال بخصوص أعمالي مع والدك .

ولكن «جينا» أزاحت الدفاتر والأوراق من أمامها قائلة: يبدو أنك نسيت أنني قضيت الشهور الأخيرة أتعامل مع هذه الدفاتر والأوراق . . ولست في حاجة لإعادة مراجعتها .

وواجهته بنظرة لا تخلو من بعض الشك مضيفة: وأنا أثق بك بالطبع!

فرفع يده اليسرى الممسكة بالسيجار قائلاً: حسنا . . وماذا بعد؟

أجابته في تصميم: سوف تستمر هذه الشركة في أعمالها ولن تؤثر عليها وفاة أبي، فقد كنتما شريكين، وسأحل مكان أبي. وباعتباره كان الشريك الأكبر في هذه الشركة، فأظن أن هذه الصفة ستنتقل إليَّ، وإن كنت لن أهمل رأيك بالطبع.

فرك «كلينتون» يديه سرورا، وومضت عيناه قائلا: هذا رائع.. ولم أكن أنتظر سماع ما هو أفضل منه.

وأضاف بنظرة خاصة: لحسن الحظ أنك أنهيت دراستك الجامعية في العام الماضي، فهذا سيمنحك وقتا أفضل للتفرغ لأعمال الشركة.. ولقد كان والدك فطنا عندما نصحك بدخول كلية الاقتصاد.. فهذا هو ما أحتاجه في شريكي الجديد.

«جينا»: إن لديَّ أفكاراً جديدة بخصوص أنشطة أخرى يمكن لشركتنا أن تقوم بها.. فما هو رأيك؟

فرك «كلينتون» كفيه في سرور وإعجاب قائلاً: أنت عملية جدا.. كنت أظن أنك ستحتاجين لبعض الوقت حتى تتخلصي من أحزانك بوفاة والدك كعادة أهل الشرق.

لكنها هزت رأسها متأسفة وقالت: لن يفيد الحزن في شيء ولن يعيد ما ضاع.

وضاقت عيناها في احتجاج مضيفة: كما أنني لست من

الشرق . . أنا أمريكيـة عشت في هذه البلاد منذ كنت طفلة في الثالثة من عـمري . . ولا أذكر من الشرق شيئاً حتى وإن أصر والدي على تعليمي اللغة العربية بنفسه .

قال يداعـبهـا: هل نسيت أنك تحـملين الجنسـية المصريـة مثل والدك بحكم الميلاد؟

بدا على «جينا» أن الدعابة لم ترق لها وقالت في استياء:

ـ لا أظن أنني سأحتاج إليها في شيء .

جذب «كلينتون» مقعدا وجلس أمامها قائلا:

ـ إنك تخـتلفين عن والدك في أشـياء كـثيرة . . فـقد كـان يحب تلك البلاد الغريبة «مصر» . . وكنت أتعجب وهو يسافر إليـها كـل عام لشـهـر أو اثنين ، ويصـر على أن يكون له فـيهـا موطـئ قدم بتلك المشـاريع الصغيرة التي كـان يقيـمهـا هناك ، والتي كانت لا تربح حتى مصاريف سفره .

زمت «جينا» شفـتيهـا لحظة عاقـدة ما بين حـاجبيهـا وقالت متنهدة:

ـ كان أبي عاطفيا . . وأنا أفكر بطريقة عملية . . ولا يمكن أن يقنعني إنسان بأن استثمر أمـوالي في بلاد متخلفـة تنام حتى الظهـر ويركب أهلها الجمال ويشـربون المياه الملوثة ويـعيشون

على حضارة أجداد ماتوا منذ آلاف السنين .

قال «كلينتون» في جدية: إذن . . ستصفّين أعمال والدك في «مصر»؟

أومأت برأسها موافقة وقالت:

ـ هذا صحيح وخلال بضعة أيام سأنهي ترتيبات سفري إلى «مصر» لكي أقوم ببيع كل مشاريع أبي هناك وأعود بالمال لأستثمره هنا . . في بلادنا . . «أمريكا» . . فإنهم في «مصر» إن علموا بوفاة والدي فربما ينهبون كل أمواله وأملاكه إن تأخرت في التصرف فيها ، وخاصة إذا عرفوا أن الوريث الوحيد له هو ابنته ، ولهذا يجب أن أسعى لتصفيتها بأسرع ما يمكن .

هتف «كلينتون» في سرور واضح: رائع . . فإن شركتنا في حاجة بالفعل الى ضخ المزيد من الأموال لتزداد أرباحها .

وتأملها بعينين زرقاوين جذابتين وهو يهمس: هل تعرفين أنك تبدين الليلة أكثر فتنة وجمالا من كل المرات الأخرى التي شاهدتك فيها . . وخاصة بهذا الرداء الأحمر الساحر بعد أن تخلصت من الملابس السوداء سريعاً ، وتلك الظلال الرائعة تحت عينيك . . وهذا الفم الرقيق مثل قطعة مشقوقة من

الفراولة .

وامتدت أصابعه لتتحسس أصابعها بطريقة مدربة . . ولكن «جينا» أبعدت كفيها عنه قائلة في بعض الغضب: «كلينتون» . . لا أظن أن مثل هذه الكلمات يمكنها أن تؤثر فيّ .

وأضافت في تهكم: أنا محصنة ضد هذا النوع من الغزل . . الميكانيكي .

زم «كلينتون» شفتيه في استياء قائلا: لماذا تظنين أن مشاعري نحوك باردة الى هذا الحد؟

أجابته وهي تشيح بوجهها بعيدا: لأنني راقبتك خلال الفترة الأخيرة عن كثب ورأيت كيف كنت تغازل كل فتاة تقع عليها عيناك ، وأنت تحاول مغازلتي في نفس الوقت .

قال في تردد: ولكن . . أنت مختلفة عن الباقيات .

واجهته في برود وتهكم: وما وجه الاختلاف؟

وقبل أن ينطق أضافت في سخرية: لا تقل لي إنك أحببتني . . وإلا انفجرت بالضحك لهذه النكتة . . فلا أظن أن تلك الكلمة مما يعرفها أهل هذه البلاد ، وخاصة أنت .

فرمقها «كلينتون» وقد فاجأته إجابتها . . ثم تذكّر تجربتها

القاسية مع ذلك الرجل الذي أحبته وتزوجته، وكانت نهاية ذلك الزواج أن كرهت كل الرجال ولم تسمح لرجل قط أن يقترب من مشاعرها. ولكن كان عليه أن يبذل كل جهده، فقد كانت الصفقة مغرية وتساوي أكثر من عشرة ملايين دولار.

وارتعشت أصابعه الممسكة بالسيجار في حركة متوترة وقال في عصبية: حسناً.. هل يمكننا أن نتحدث بطريقة عملية؟

- ماذا تقصد؟

- لنعقد صفقة مثلا.

- أي صفقة؟

- نتزوج.

فاجأتها عبارته.. أدهشها أنه هو بالذات يطلب الزواج وهو الذي تهرب مئات المرات من نساء أكثر منها جمالا وفتنة أردن الإيقاع به في شباكهن.

وسألته في بعض الدهشة: ولماذا تريد أن نتزوج وليس بيننا أية مشاعر.؟

أجابها دون مواربة: إنها صفقة كما أخبرتك.. ليتحد جزءا شركتنا فلا يفكر أحدنا في الانفصال عن الآخر، فأنت صرت الشريكة التي تمتلك الجزء الأكبر من رأس مال

الشركة، وأنا الشريك الخبير بكل أعمالها وعملائها وطرق التعامل معهم، ونحن معا نكوّن شركة قوية وناجحة، والزواج سيدعم هذا النجاح ويؤكده. . بحيث أن أحداً منا لن يمكنه الانفصال عن الآخر.

رمقته «جينا» في شك. . وتساءلت. . هل تتكلم بجدية؟

ولكنه واصل في لهفة: وأعدك بأنني سأتخلى عن كل مغامراتي العاطفية. . إن كانت ستضايقك.

لمعت ابتسامة صغيرة فوق شفتيها. . كانت تعرف مقدما أنه كاذب. . وأنه لا يستطيع التخلي عن أسلوبه في الحياة. . فأول امرأة اضطر لأن يتظاهر بحبها كانت تمتلك منزلا فاخراً استطاع الاستيلاء عليه قبل أن يطردها منه في النهاية. وأول مليون دولار امتلكه كان ملكا لامرأة قبلها. . فأحبها واستولى على مالها قبل أن يرسلها الى ملجأ للعجزة قهراً!

ولكن. . كان عرضه بالزواج يبدو صفقة جيدة بكل تأكيد. فهي لا يمكنها أن تمضي في الحياة وحيدة دون رجل بعد وفاة والدها: وهي أيضا تعرف كيف تسوس مثل هذا الرجل، وإن كانت له حيل كل مخادعي العالم.

همس يقول لها: أنت فتاة عملية. . فكّري جيدا.

وكان على حق فهي طوال عمرها لم تشعر بعاطفة ما تجاه أي إنسان أو أي شيء آخر في هذا العالم باستثناء والدها. ويوما ما أحبت رجلا بكامل عاطفتها، وكانت نهاية هذا الحب مريرة، فأغلقت على قلبها المصاريع والأبواب، وفكرت في أن مشاعرها الباردة ربما ترجع لأنها حُرمت من عاطفة الأمومة وهي طفلة فهاجر بها والدها بعد وفاة أمها الى «أمريكا». وربما لأنها عاشت وحيدة سنوات طويلة في مسكن قذر بارد تنتظر عودة أبيها من عمله الشاق كعامل في أحد المصانع الأمريكية.. قبل أن يستقيل ويتحول إلى الأعمال الحرة ويمتلك الملايين.

وربما لأنها حُرمت من أشياء كثيرة كانت في أشد الاحتياج إليها وقتها وهي صغيرة.. فلما امتلكتها بعد ذلك بسنوات فقدت بريقها وجاذبيتها.. وتعلمت كيف تغلق مشاعرها على نفسها.

وأفاقت على صوت «كلينتون» وهو يسألها في لهفة: ما ردك على مشروعنا؟

تحركت أهدابها الطويلة السوداء في لحظة تفكير خاطفة، واستدارت دون مشاعر إليه قائلة: ولم لا؟

قفز «كلينتون» من مكانه صائحا: رائع.. إنها أعظم صفقة

عقدتها في حياتي.

ودس يده في جيبه ثم أخرج علبة قطيفة فتحها في لهفة فتألق بداخلها خاتم من الماس له بريق يخطف الأبصار، يساوي آلاف الدولارات. ومده إليها. فسألته في دهشة: ما هذا؟

فأجابها في لهفة: إنه خاتم خطوبتنا.

حدقت «جينا» فيه بدهشة فأضاف بلهجة خبيثة: كنت أعرف أنك ستوافقين على عرضي.. فاستعددت له.

تأملته «جينا» بوجه بلا مشاعر. كان يبدو خبيرا بأمور النساء. ومدت أصابعها والتقطت الخاتم فقال متلهفا: دعيني أضعه في أصبعك.

ولم تشعر إلا بلمسة باردة من أصابعه وهو يلبسها الخاتم.. وارتدى هو خاتما رخيصا من الذهب وهتف في فرح: الآن صرنا خطيبين.. فدعينا نحتفل بذلك.

ولكنها رفعت كفاً رافضة في وجهه قائلة: لن يكون هناك أي احتفال قبل عودتي من «مصر» بعد تصفية كل أعمال أبي هناك.. وعندها يمكننا أن نحتفل.. ونتزوج.

ـ أنت مدهشة.. رائعة.

ـ ولكن هناك شيء أخير يجب أن يتم قبل زواجنا .

ـ وما هو . . أنا على استعداد لأن أفعل أي شيء لأجلك .

ـ إنني مسلمة . . ويجب أن أتزوج رجلا مسلما .

نظر إليها «كلينتون» في دهشة فقالت: قد أكون عشت وكبرت في «أمريكا» ولكنني قبل كل شيء مسلمة ، ولن أتخلى عن ديني أبداً. وكما أخبرتك . فلا يحق لي الزواج إلا من رجل مسلم . فهذا هو الشيء الوحيد الذي أحمله من الشرق ويستحيل عليَّ أن أتخلى عنه أبداً .

ابتلع «كلينتون» لعابه مفكرا لحظة ثم قال: حسنا . . سوف أشهر إسلامي إن كان هذا سيسمح بزواجنا .

نهضت «جينا» واقفة وهي تقول: إنني مضطرة للانصراف حالا للاتصال بمحامي والدي الخاص في «مصر» لتجهيز كل أوراق ملكية أبي لمشاريعه في «الإسكندرية» ، وهناك أشياء أخرى كثيرة يجب أن أقوم بها استعدادا لسفري الى «مصر» .

فمد «كلينتون» أصابعه الرشيقة المنمقة وأمسك بأصابعها ثم طبع فوقها قبلة صغيرة . . خبيرة .

في بلاد . . . الشرق

حدق موظف الجوازات في جواز سفر «جينا» وسألها: أنت «مصرية»؟

فأجابته في حدة وغضب: إن جواز سفري في يديك يقول إني أمريكية.

فتأملها في دهشة قائلا: ولكن ملامحك «مصرية» خالصة. . وحتى لغتك العربية ذات لهجة «مصرية» صميمة.

قالت مقطبة: كان والدي «مصريا». . ولا أظن أن أمر جنسيتي يهمك كثيرا.

أجابها في اهتمام:

ـ بالعكس. . فإن دخولك البلاد بجواز سفر «مصري» يتيح لك مزايا كثيرة باعتبارك مواطنة «مصرية» لها كافة الحقوق.

أما دخولك البلاد بجواز سفر أمريكي فهو يجعل الجميع يعاملونك كأجنبية و . .

قاطعته «جينا» في غضب: يبدو أنني أخطأت عندما تحدثت معك بالعربية التي أود أن أنساها.

واختطفت من يده جواز سفرها وغادرت الدائرة الجمركية وموظف الجوازات ينظر إليها في دهشة واستنكار.

خارج المطار كان الجو دافئا والشمس في قلب السماء، والنهار لم ينتصف بعد، واقترب منها رجل قصير بدين قائلاً في مزح: هل أنت في حاجة الى «تاكسي» . . إنني أمتلك سيارة رائعة ستريحك تماما.

فسألته «جينا» مقطبة بالإنكليزية: هل تتحدث الإنكليزية؟

أجابها السائق مبتهجا بنفس اللغة وهو يفرك كفيه: نعم . . ومرحبا بالسياح في بلادنا الجميلة.

ونقل حقائبها الى سيارته وهو يسألها: هل أنت إسبانية؟

- ولماذا؟

- لأن ملامحك أقرب الى أهل الشرق.

فكرت «جينا» في أن ملامحها ستمثل مشكلة حقيقية

أمامها، وقالت تجيب السائق البدين في اقتضاب: بل أنا أمريكية.

فعاد يسألها في إلحاح: لا بد أن أحد والديك مصري؟

أجابته في حدة وغضب: ليس هذا من شأنك.

فابتلع السائق لعابه خجلا ولم ينطق بعدها، على حين أخذت «جينا» مكانها.. في المقعد الخلفي.

وطوال الطريق ظلت صامتة مقطبة وهي تراقب الطرقات والبنايات مفكرة في أنها ستقضي أياما صعبة في تلك البلاد التي ينشغل أهلها في دس أنوفهم في أشياء لا تعنيهم! وأدهشها منظر العمارات الضخمة والشوارع العريضة المتسعة والأنفاق والكباري قبل أن تغادر القاهرة.. وتساءلت في دهشة إن كان سكان تلك البلاد قد تخلصوا أخيراً من ركوب الجمال والبغال وإن كان نيلهم لا يزال يعج بتماسيحه أم لا؟

وظلت أصابعها مطبقة طوال الطريق على رشاشة إسبراي خاص بها مادة تشل من تصيبه وتسبب له آلاماً شديدة وعمى مؤقتاً. كان ذلك هو سلاحها الوحيد الذي أهداه لها «كلينتون» قبل سفرها قائلاً: من المؤكد أن بعضهم سيحاول التحرش بك في هذه البلاد التي يسودها الفقر والجريمة، فعليك

أن تكون يدك أقرب الى هذا السلاح دائما . . وإذا ما استقليت «تاكسي» فخذي مكانك في المقعد الخلفي ولا تسمحي لأحد بالجلوس بجوارك مهما كان .

ولكن السائق لم ينطق بحرف طوال الطريق ولم تنحرف عيناه تجاهها أبداً ولم يرمقها حتى في مرآة السيارة .

وأخيراً ظهرت مشارف «الإسكندرية» وقد بدأ هطول الأمطار الذي تحوّل الى سيل بعد قليل . . فسألها السائق: أين تودين الذهاب في «الإسكندرية»؟

فسألته متشككة: ما هو أفضل فندق في هذه المدينة؟

أجابها السائق في حماس: هناك أكثر من فندق ممتاز . . منها «فندق فلسطين» ، وكذلك «شيراتون المنتزه» . ولكن افضل شخصياً «فندق فلسطين» لأنه يلتصق مباشرة بالشاطىء .

فأجابته في اقتضاب: حسنا . . خذني إلى «شيراتون المنتزه»!

فحدق فيها السائق بدهشة في مرآة السيارة ، ثم أطاع كلماتها دون نقاش مفكرا في أنه يحمل معه راكبة غريبة الأطوار من الأفضل إطاعتها دون مناقشة .

وكان مشهد طريق الكورنيش فاتناً وقد غسلته الأمطار ، وليس هناك غير عدد قليل من المارة يعبرونه . وقد لمعت

الأضـواء البـعيـدة، وراحت الأمواج تـلطم الشـاطئ في عنف ملقيـة برذاذها على السـائرين والسـيـارات المارة، وقـد تشـبع الهـواء برائحـة البحـر الطازجـة. ففـتـحت «جينـا» نافذة البـاب المجاور لها تتشمم رائحـة البحر في تلذذ مفكرة في أنه قد يكون الشيء الوحيد النقي في تلك البـلاد. وراقبت الشاطئ والطريق متـسـائلة إن كـانت قد مـرت بنفـس تلك الأمـاكن وهي طفلة عندمـا كانت تعيش في« الإسكندرية» قبل وفاة أمـها وهجـرة أبيها الى «أمريكا»؟

كـان والدها كـثيرا ما يحـدثهـا عن جـمـال «الإسكندرية» وخـاصة في الشـتاء، وكـيف ظلت حية في ذاكـرته كل تلك السنين إلى أن صار من رجال الأعمال. فـحط رحاله إليها مرة أخرى ليقيم فيها بعض المشـاريع، عارضاً عليها في كل مرة أن تصحبه إلى «الإسكندرية» ولكنها كانت ترفض باستمرار. فلم يكن هناك شيء في العالم يمكن أن يقنعها بزيارة تلك البلاد ولو ليوم واحد. وتنهدت : فها هي الأقـدار تجبرها على القيام بتلك الزيارة رغما عنها في ظروف لا تحتمل التأجيل.

وأخيراً توقفت السيارة أمـام «الشيراتون»، وغادرت «جينا» السيارة وهي تسأل في شك: كم تريد أجرة؟

فأجابها مستسلماً في طيبة: ادفعي ما تشائين ، فما يهمني هو إرضاؤك .

فناولت السائق خمسين دولاراً ، أخذها منها في سرور هاتفاً: شكرا لك يا سيدتي . . بارك الله فيك ، فهذا أكثر مما كنت أريد .

وأنزل السائق حقائبها وأدار سيارته مبتعدا . واتجهت «جينا» إلى الداخل . كانت أكثر غرف الفندق خالية بسبب الشتاء وقلة الغرباء . فاختارت جناحاً كبيراً يطل على البحر مباشرة ، وقالت لموظف الاستعلامات: سوف أضع كل ما معي من أموال أمانة في خزائن البنك و . .

واتسعت عيناها في لهفة وذعر عندما تنبهت الى أن حقيبتها الشخصية الصغيرة ليست معها . . وصاحت في غضب: هذا السائق اللص . . لقد سرق حقيبتي وبها عشرة آلاف دولار ومجوهرات بأكثر من ضعفها .

فهتف الموظف: سوف أتصل بالشرطة حالاً للإبلاغ عنه . . هل التقطت رقم سيارته؟

ولكنها أجابته في حدة: لا . . ولكني أعرف ملامحه جيدا . . هذا اللص كيف أمكنه خداعي . . كنت أعرف منذ

البداية أنه مخادع ومحتال فقد كان شكله يدل على ذلك .

وعلا صياحها في غضب: يا لهذه البلاد المليئة باللصوص . . إنني لم أكد أصل إليها إلا منذ ساعتين وسرقوا كل مالي!؟

وصاحت في الموظف بحدة: اتصل بالشرطة . . افعل أي شيء للقبض على هذا اللص وإلا شكوتكم الى سفارة بلادي .

ولكن ومن الخلف اندفع شخص مهرولاً وهو يقول: سيدتي . فالتفتت «جينا» . . وما أن لمحت السائق القصير البدين حتى اندفعت صوبه وأمسكته من ياقته صائحة: أيها اللص . . أين أخفيت النقود والمجوهرات؟

فحدجها السائق بنظرة حزينة ، ومد إليها شيئا كان يمسكه في يده قائلاً: ها هي حقيبتك يا سيدتي ، فما أن عثرت عليها في المقعد الخلفي حتى هرولت عائداً بها إليك .

امتدت أصابع «جينا» في لهفة نحو حقيبتها وفتحتها . . كان المبلغ كاملا وكذلك مجوهراتها . . ورمقها موظف الاستعلامات بنظرة غير مريحة قائلا: إن هذا السائق الأمين يحق له الحصول على عشرة في المائة مما عثر عليه حسبما ينص القانون .

ولكن السائق هز رأسه رافضا وقال: أنا لا أتقاضى ثمنا لأماناتي .

وغادر بهو الفندق مرفوع الرأس، والتفتت «جينا» مقطبة الى موظف الاستعلامات قائلة: إنها ألاعيب اللصوص، فلا شك أن هذا السائق اللص خشي بعد أن سرق الحقيبة من أنني تمكنت من التقاط رقم سيارته وأن الشرطة ستقبض عليه فأعاد الحقيبة بسرعة.

أجابها الموظف مقطّباً في غير موافقة: ربما.

وأخبرها برقم حجرتها وأعطاها المفتاح، فصعدت إليها مع خادم الحقائب وهي تراقبه في حذر. ولكن الخادم وضع الحقائب في حجرتها في أدب فمنحته بقشيشا سخيا. وبعد أن غادر الحجرة وقفت من خلف الزجاج المغلق تراقب البحر الثائر وأمواجه المتكسرة على الشاطئ. وعلى البعد كان ثمة طفل في ملابس فقيرة يلهو وسط الرذاذ في بهجة دون أن يعبأ بابتلاله فغمغمت في سخط: ما أكثر الأطفال المتشردين الذين لا أهل لهم في هذه البلاد.

كان البحر ذا لون أزرق صافٍ، يبدو سطحه كمرآة لامعة مصقولة يضطرب سطحها باهتياج رائع في أمواج متكسرة متعاقبة.. فراقبته «جينا» وقد أخذها المشهد الرائع لحظة، ثم أفاقت قائلة لنفسها في سخرية: من العجيب أن مثل هذه البلاد

المتخلفة لديها مثل هذا البحر الجميل وذلك الشاطئ الرائع .

وفكرت في أن الله يوزع عطاياه في هذا العالم على من لا يستحقها!

كانت تشعر بتعب شديد بعد سفرها الطويل فنامت ساعات طويلة . . واستيقظت في المساء فأخذت حماماً بارداً ثم اتجهت الى التليفون وأدارت رقم خدمة الغرف طالبة مشروباً ساخناً. وبعد قليل أقبل النادل بالشاي وما أن وقع بصره على غلالتها الرقيقة حتى تراجع في ارتباك وتورد وجهه بعلامات الحياء، فمطت «جينا» شفتيها في استياء وارتدت «روبا» بجوارها وهي ترمق النادل بتقطيب ، فتقدم الى منتصف الحجرة ووضع الصينية فوق المائدة أمامها متسائلاً في رقة بإنجليزية سليمة: هل من خدمة أخرى يا سيدتي؟

فأجابته متشككة: هل أن الماء الذي صنع منه الشاي تم غليه جيداً؟

قطّب النادل الشاب حاجبيه لإخفاء دهشته قائلاً: إن ماءنا نظيف تماما ونحن نشربه حتى بدون غليه .

قالت في لهجة باردة: أنا لم أسألك ماذا تشربون أو تأكلون في هذه البلاد . . إن سؤالي محدد فربما لا تحتمل معدتي الجراثيم التي اعتدتم على تناولها في طعامكم وشرابكم باعتبارها شيئاً عادياً!

رمقها الشاب بنظرة ضيقة من عينيه الرماديتين وقال بأدب: إن طعامنا ومشروباتنا نظيفة تماما يا سيدتي، ولم يحدث أن اشتكى منها أي من نزلاء الفندق الأجانب، بل إن أغلب الأجانب الذي يأتون الى هذه البلاد يعودون إليها ذات يوم ليشربوا من نفس الماء، فمن يشرب من ماء النيل لا بد أن يعود ليشرب منه مرة أخرى.

حدّقت «جينا» في الشاب بغيظ.. كان يبدو متعاليا لا يسمح لها بأي إهانة وكأنه مندوب دعاية لبلاده، بالرغم من أنه لم يكن أكثر من خادم في فندق!

وقالت في تهكم: يبدو أن البعض في هذه البلاد لا يجيدون غير الحديث الرنان.. والتباهي بأشياء ليس لهم فضل فيها!

فحدجها الشاب بنظرة مقطبة وقد تسارعت أنفاسه دون أن ينطق، ثم تحركت شفتاه في صوت بارد متسائلاً: هل تريدين شيئا آخر يا سيدتي؟

فسألته بنفس اللهجة الساخرة: ترى هل سيخبرني موظفو المطعم في الفندق بنفس الشيء عن طعامهم وعن عودة الأجانب لتذوقه مرة أخرى؟

فقال يجيبها بنفس اللهجة المتعالية: لم يحدث أن اشتكى أحد

النزلاء من طعامنا أيضاً يا سيدتي فنحن مشهورون بالطعام الممتاز و . .

فأشارت إليه «جينا» مقاطعة وقد ارتسم على ملامحها تقطيب حاد . . فتوقف الشاب عن الحديث ، وقالت له «جينا» ساخرة: لست أحب الخدم الذين يحاولون الظهور بمظهر الفلاسفة ، فوفر على نفسك ما تريد قوله .

احتقن وجه الشاب وارتعدت شفتاه . . وبدا في عينيه وميض غاضب ، وظهر واضحا لعين «جينا» أنه يبذل مجهودا كبيراً ليتحكم في انفعالاته وأنه في المرة القادمة قد يفكر في صفعها!

وزم الشاب شفتيه في قوة قائلاً: لست خادماً لأحد يا سيدتي . . ولو أطلعتك على شهادتي لعرفت أنني حاصل على الماجستير وأقوم بالتحضير لرسالة الدكتوراه عما قريب . . وإذا كنت أقوم بخدمتك الآن فلأنني موقن أنني أمارس عملاً شريفاً أحصل منه على أجر أنا في حاجة إليه لاكمال دراستي .

بدت على وجه «جينا» دهشة عميقة وقالت مستنكرة: خادم وتقوم بالتحضير للدكتوراه؟

وغمغمت لنفسها: يا لهذه البلاد التي يمنحون فيها الشهادات الكبيرة لعمال الفنادق والخدم ، فلا عجب إن تخلفت الى هذا الحد!

وأخرجت من حقيبتها عشرة دولارات وضعتها فوق الصينية أمام الشاب وهي تراقبه قائلة: هذه لك . . بقشيش ثمن خدمتك لي!

أحنى الشاب رأسه في أدب قائلا: شكرا لك .

وراقبته «جينا» باسمة وهو يغادر المكان بوجه محتقن .

كان هذا هو ما تريده تماما . . بهذه الدولارات كأنها تؤكد له أنه مجرد خادم ليس له غير أن يحني رأسه شاكرا ويغادر المكان بفم مطبق حتى ولو كان حاصلا على الدكتوراه . وأنها بنقودها قادرة على أن تأمره بالذهاب إلى الجحيم فيفعل دون أن يجرؤ على مخالفة أوامرها!

وأخرجت معطّراً من حقيبتها رشته في الحجرة . . وتذوقت الشاي في حذر . . كان طعمه لذيذا فأتت عليه وبدلت ملابسها ثم اتجهت الى المطعم .

كانت تشعر بجوع شديد . . وطلبت عشاء من شرائح اللحم المقدد والخضروات المطهوة . وتشممتها أولاً قبل أن تبدأ في التهامها ومما جعلها تطمئن أن غيرها من رواد الفندق القلائل قد راحوا يأكلون من نفس الطعام .

كان الطعام لذيذاً ومذاق اللحم رائعاً فلم تُبق منه شيئا ،

وقالت لنفسها إن هؤلاء الشرقيين لا بد أن يكونوا بارعين في أصناف الطعام، فلا شيء يهمهم قدر امتلاء معدتهم بالطعام، ثم الاستلقاء في كسل بعد ذلك والاستدانة من الدول الأخرى!

ونهضت لتغادر مكانها فشعرت أن ساقيها لا تقويان على حملها. . وأحست ببصرها يزوغ والمرئيات تتراقص أمام عينيها. . وشعرت أنها توشك على التهالك فاستندت على الحائط وصاحت في صوت متحشرج: لقد أصبت بتسمم. . كان الطعام فاسداً.

توقف الجالسون عن الطعام وحدقوا فيها ذاهلين. . وأفرغت «جينا» ما في معدتها وهي تتأوه في ألم، فاندفع إليها أحد العاملين صائحا في توتر: سيدتي ماذا بك؟

ولكنها دفعته في غضب واهتياج برغم آلامها صارخة: كان الطعام مسموما. . استدعوا لي طبيبا بسرعة.

وتهاوت على الأرض غير قادرة على الحراك.

ثم تنبهت بعد قليل وفتحت عينيها متأوهة. . كانت راقدة في جناحها، والطبيب قد انتهى من فحصها ووقف بجواره مدير الفندق.

وقالت متأوهة: إنه الطعام. . كان فاسدا.

فأجابها الطبيب في حسم: لا. . لم يكن الطعام هو السبب، بل إصابتك ببرد شديد هي التي جعلتك تنهارين فجأة وتفرغين ما في

معدتك ثم تفقدين الوعي، وعليك بالراحة التامة والدفء وتناول الدواء الذي سأرسله لك في مواعيده لكي تستردي صحتك سريعاً.

وغادر الطبيب حجرتها مع مدير الفندق الذي رماها بنظرة استياء مقطبة.. فغمغمت لنفسها في غضب: إنهم يرفضون الاعتراف بالحقيقة.. وإذا مُت فليس أسهل من أن يدوّن طبيب جاهل سبب وفاتي بأنها كانت بسبب الحساسية أو لدغة ناموسة! وأغمضت عينيها في ألم هامسة بإصرار: عليّ أن أغادر هذه البلاد بأسرع ما يكون قبل أن تقضي عليّ.

وطُرق الباب بعد قليل فسمحت لمن يطرقه بالدخول..

كان نفس الشاب وقد حمل في يده الدواء.. وقدمه إليها قائلاً: بالشفاء إن شاء الله.

وسألته «جينا» في سخرية وهي تغالب آلامها: أخبرني.. هل حدث أن مات أحد النزلاء في فندقكم من قبل بسبب الطعام؟

فأجابها وقد بدا أنه استعد للرد جيدا: لا يا سيدتي، فإن أحداً لم يمت من قبل بسبب طعامنا.. ولكن ربما يموت أحدهم قريبا بأوهام التعالي والخيلاء الكاذبة!

وتركها وقد اشتعلت عيناها غضبا.. وثورة.. دون أن يعبأ حتى بانتظار ردها.. أو بقشيشها!!

بنت البلد

وظلت طوال الليل بين اليقظة والنوم تهاجمها آلام متقطعة بعد أن تناولت الدواء. . ثم غفت قليلاً في الصباح. . وأفاقت على أصوات طرقات رقيقة على باب حجرتها. .

ووجدت في نفسها القوة لتغادر فراشها، وقد تحسنت كثيرا، وارتدت «روبا» وفتحت الباب. . كان هو الشاب نفسه واقفا يحمل كأسا من الليمونادة الساخنة.

وتأملته في صمت دون أن تفسح له طريقا للدخول، وبدا كأنه تخلص من عليائه وصار أكثر تهذيبا وهو يقول لها: لقد جئت بهذه الليمونادة الساخنة لأجلك، فهي أفضل شيء للمصابين بالبرد.

تأملته لحظة ثم سألته: هل تعمل ليلاً نهاراً في هذا الفندق؟

أجابها دون أن تلتقي عيناه بعنيها: لقد طلبت مني الإدارة أن أعمل ورديتين متعاقبتين لخدمة نزلاء هذا الطابق.

فكرت «جينا» في أنه لم يأت خصيصا بل بطلب من الإدارة، وأن بقية العاملين في خدمة الغرف ربما يرفضون خدمة تلك الأمريكية المتعالية التي تظن أن كل ما يحملونه إليها من مشروبات وطعام هو سم زعاف!

ولكنها أحست بارتياح لذلك الشاب الواقف أمامها واعتبرت أن ما قاله بالأمس هو نوع من الدفاع المشروع عن النفس كانت ستمارسه لو أنها واجهت نفس الموقف. وافتر ثغرها عن ابتسامة، وأفسحت الطريق قائلة: ضع الليمونادة بالداخل.

فخطا للداخل ونفذ أمرها.

وتنبهت «جينا» للمرة الأولى إلى أن ملامحه كانت وسيمة بفمه القوي المزموم وأنفه الشامخ وذلك البريق المليء بالثقة في عينيه اللتين أظهر ضوء النهار لونهما الفريد في ذلك المزيج ما بين الأسود والرمادي. وحتى خصلات شعره الأسود القصير المصففة بعناية كانت تتخللها شعيرات بيضاء تزيده وسامة

ورجولة بالرغم من أن عمره لم يكن قد تجاوز الثلاثين بكل تأكيد.

وفي أدب وقف يسألها: هل تريدين شيئا آخر يا سيدتي؟

فجلست فوق طرف فراشها محدقة به تسأله: اخبرني، ما هو موضوع الدكتوراه التي تحضرها؟

أجابها في ثقة: في الاقتصاد.

أدهشتها إجابته وأشعلت اهتمامها فعادت تسأله: وما هو الفرع الذي تقوم بتحضير رسالة الدكتوراه فيه بالضبط؟

بدا على الشاب الفخر والسرور وهو يجيبها: إنه يتناول العلاقة بين تأثير الاقتصاد العالمي وآليات السوق وإمكانية تطبيقها على الدول النامية.

قطبت «جينا» حاجبيها قائلة: إنه موضوع شائك وصعب بكل تأكيد، ولو كنت مكانك لما اخترته.

قال الشاب في تلهف: أنا أطمع في الحصول على الدكتوراه بامتياز للتعيين في الجامعة.

مطت «جينا» شفتيها بعدم اهتمام قائلة: لا أظن أنه تفكير صائب أن تتحمل كل هذه المشقة لأجل أن تصبح أستاذاً جامعياً في جامعة من جامعات العالم الثالث.. لماذا لم تفكر

بالهجرة الى أمريكا مثلا أو أي دولة متقدمة فتصبح ذا شأن؟

ولكنه عقد حاجبيه في استنكار قائلاً: مستحيل أن أفكر في مغادرة وطني.

في دهشة حقيقية سألته: ولماذا؟

أجابها متعجباً من دهشتها: يكفي أنه وطني مهما كانت درجة تقدمه. . فإن كان كل أبناء الوطن النابهين سيغادرونه بحجة تخلفه، فمن الذي سيأخذ بيده لنهضته . . وكيف بعد أن أنفق عليّ وطني وعلمني بالمجان أغادره لأعلّم أبناء وطن آخر، وكيف سيطاوعني قلبي أن أترك أهلي وأحبائي وكل شيء أحبه مقابل المال. . إن الوطن لا يعوضه أي شيء آخر في العالم.

قالت محتجة: ولكنه وطن متخلف.

واجهها وتقطيبة غاضبة تكسو كل ملامحه: لا يصح أن تقولي هذا عن بلدك.

- بلدي؟ هتفت مستنكرة، وشحب وجهها وهي تسأله في حدة: ولماذا اعتقدت أن «مصر» هي بلدي. . هل لأن ملامحي بلون القمح قليلا وشعري أسود؟

قال متمهلا وهو يتأملها كأنه يبحر في عالمها البعيد: ليس

لأجل ملامحك فقط عرفت أنك مصرية . . ولكن الحقيقة أن كل شيء فيك ينطق بالبلد الذي تنتمين إليه . . ليس فقط شموخ الأنف كما في تماثيل المصريين القدماء ولا نظرة العينين السوداوين العميقتين كما صورها الفنان المصري القديم في تمثال «نفرتيتي» . . بل وحتى طريقتك في الحديث والتفاتتك وابتسامة شفتيك . . كل هذه الأشياء تحدد هويتك حتى وإن حاولت إنكارها أو التحدث بلهجة أمريكية خالصة .

زمت «جينا» شفتيها في حنق . . كان ذلك الشاب يبدو قادرا على الفوز عليها في كل مرة يتجادلان معا . وقالت وهي تخفي غضبها: اؤكد لك انّك أخطأت . . فأنا لا أنتمي الى هذه البلاد بأي حال .

رفع حاجبيه دهشة وقال: ربما يا سيدتي . . لعلّي قد أخطأت .

وتحرك نحو باب الحجرة دون أن يضيف شيئا . . وقبل أن يغيب عن عينيها تماما سألته: لم تخبرني ما اسمك؟

فاستدار نحوها وهو يحدق في عينيها مباشرة وقال: «محمود عزمي» .

ولم ينتظر مزيدا من الأسئلة وأغلق الباب خلفه .

ووقفت «جينا» لحظة مكانها وصدى صوت ذلك الشاب يرن في أذنيها: كل هذه الأشياء تحدد هويتك حتى وإن حاولت إنكارها.

واستدارت ببطء لتواجه المرآة العريضة في صدر الحجرة.

لأول مرة تتأمل ملامحها بذلك الشكل. راقبت أنفها وعينيها.. وتعمدت أن تشاهد ابتسامتها وتقطيبها في المرآة.

واستدارت نحو الصورة المعلقة للملكة القديمة «نفرتيتي». لأول مرة تنتبه إليها.. وأدهشها أنها بالفعل وكما أخبرها «محمود».. كان لها نفس العينين السوداوين والأنف الشامخ. وكان ثمة تشابه عجيب بينهما. حتى في استطالة العنق وكبريائه. ولكنها هزت كتفيها بعد لحظة.. فقد كانت هناك أشياء أخرى تشغلها.

كانت هناك إجراءات لا بد من القيام بها لتغادر «مصر» بأسرع ما يمكنها.

* * *

وكان لديها عنوان محامي أبيها في «الإسكندرية».. فغادرت الفندق واستقلت «تاكسي» الى حي «سان استيفانو».

واستقبلها محامي والدها في ترحيب قائلاً: أهلا بك يا سيدتي. . فقد تلقيت برقيتك قبل وصولك الى «مصر» . . وإن لم يتح لي الوقت لاستقبالك في المطار، وأنا أكرر أسفي بشأن وفاة والدك وأقدم لك خالص عزائي.

فواجهته بنظرة ساخرة؛ فربما كان وقت وصولها يرقد في غفوة طويلة وتكاسل عن السفر، وقالت في جمود: شكرا لك.

وجلست الى أقرب مقعد مواصلة: أرجو أن تكون قد قمت باللازم لأجل بيع أملاك والدي في أسرع وقت.

فأجابها بابتسامة صغيرة: إن الأمور لا تسير في بلادنا بنفس السرعة. . والأمر يحتاج لبعض الوقت من أجل استخراج بعض الشهادات القانونية مثل إعلام الوراثة وكذلك إبلاغ الضرائب لكي تستوفي مستحقاتها أولاً قبل البيع. . وقد بدأت هذه الإجراءات ولكن إنهاءها سيستغرق وقتا.

قطبت حاجبيها متسائلة: وكم سيستغرق ذلك؟

أجابها وهو يعبث ببعض الأوراق أمامه: ليس أقل من شهرين.

ـ ماذا؟

هبت من مكانها محتدة وواصلت: من المستحيل أن أبقى في هذه البلاد كل هذا الوقت.

بدا الأمر غير ملح بالنسبة للمحامي وهو يقول: يمكنك عمل توكيل يتيح لي القيام بتلك الإجراءات نيابة عنك، ثم تحويل أموال البيع إليك في «أمريكا».

راقبته «جينا» ساخرة مفكرة في أنها تواجه ذئبا حاد المخالب يظن أنه وقع على صيد ثمين فريد.

وقالت في بطء وباللغة العربية: إنني أفضل أن اقوم بتلك الإجراءات.. بنفسي.

هز المحامي كتفيه قائلاً: كما تشائين. فقد أردت تسهيل الأمر عليك ان كان هناك ما يشغلك في «أمريكا».

قالت في بطء وحسم: ولكن لن أنتظر كل هذا الوقت..

وقطبت حاجبيها مواصلة: فلنقل أسبوعين.. هل هو وقت كاف؟

- ولكن..

- سأمنحك أتعابا مضاعفة ونسبة ١٥٪ من قيمة كل ما سأحصل عليه من أموال في تركة أبي إن انتهيت من كل هذه الأعمال في هذا الوقت.

فرك المحامي كفيه ابتهاجا ولمعت عيناه بنظرة ظافرة وقال: إذن فقد اتفقنا.

لمعت عيناها بنظرة ساخرة.. علمتها الحياة أن تختار أقصر الطرق الى هدفها، وكان المال هو الشيء الساحر القادر على فعل الأعاجيب وخاصة في بلاد فقيرة.

وقال المحامي في نشاط: غدا سأمر عليك في الفندق لنذهب معا للمحكمة لأجل شهادة إعلام الوراثة.. وعليك إحضار شهادة وفاة والدك الصادرة في «أمريكا».. أما أنا فسآتي بشاهدين سيقران بأن والدك ليس له من ورثة غيرك.

رمقته «جينا» بابتسامة ساخرة.. فما أن اشتم المحامي رائحة النقود حتى كان على استعداد لأن يفعل أي شيء.. حتى وإن أتى بشهود لم يشاهدوها في حياتهم من قبل!

ونهضت مسلّمة، فصافحها قائلاً: سأنتظرك في بهو الفندق في العاشرة صباحا يا آنسة «جليلة».

فاجأها الاسم.. منذ سنوات لم ينادها إنسان به ولا حتى والدها.. وفي بطء وحنق نطقت قائلة: إنني أفضل اسم «جينا».

ولكن المحامي واجهها بنظرة خبيرة قائلا: ولكن المحكمة

ستتعامل مع اسمك المدون في شهادة ميلادك المصرية. . أما الاسم الأمريكي فلا علاقة لنا به.

رمقته «جينا» في صمت. . ثم غادرت المكان. . وقد أغاظها أن يجبرها أحد على شيء تكرهه. . وأدركت أنها في تلك البلاد قد تكون مجبرة على أشياء كثيرة تكرهها!

* * *

وكان الجو في الخارج دافئا والشمس قد توسطت كبد السماء ترسل أشعة ذهبية لذيذة. . وقد اكتظت الشوارع بالناس الذين بدوا كأنما لا عمل لهم غير التسكع في الطرقات.

كان لهم خليط من الملامح وكرنفال متنوع من الأزياء. سمر وبيض ووجوه بلون القمح. أبدان هزيلة وأخرى فتية عفية. بعضهم كان مديد القامة والآخرون كان قصرهم لافتاً للنظر، وبعضهم ملامحه شرقية خالصة، والآخرون في سكناتهم ولفتاتهم لهم جذور من أماكن أخرى بعيدة.

فكرت «جينا» في أن تلك البلاد تعاقبت عليها المحن والأنواء والغزوات. . هكسوس ورومان وعثمانيون وإنجليز وفرنسيون ويهود. . ولكنها لم تطأطئ رأسها لمحتل أبداً. . وبدلاً من أن

يسود الغزاة ويفرضوا قانونهم بسطوتهم . . فرض عليهم الشعب البسيط المسالم قانونه الخاص . . وحتى أزياءه ودينه . . ذاب الجميع وانحدروا وواراهم ثرى تلك البلاد . وبقيت «مصر» كما هي شامخة أبية أذابت كل الغرباء في بوتقتها . فصاروا من أهل البلاد ، ونسوا تلك البلاد الأخرى التي جاؤوا منها ولم يعودوا يدينون بالولاء إلا لبلادهم الجديدة .

وغمغمت متنهدة: يا لهذه البلاد . . إن فيها سحرا دون شك .

واجتذبتها رائحة أقراص الطعمية الشهية الفواحة . . وشاهدت حشدا من الناس ملتفين حول بائعها ، وكل منهم يصيح بما يريد ويوشك أن يتصارع للحصول على نصيبه ، بالرغم من أنهم لو انتظموا قليلاً لحصلوا على ما يريدون بطريقة أسهل وأسرع!

وأحست بالرائحة اللذيذة تحرك شهيتها . ولم تستطع المقاومة طويلا برغم خوفها من أن تعاودها آلام الأمس . وترددت لحظة أن تخوض ذلك الصراع بعد أن أمسكت بين أصابعها بنقودها ، ولكن أحد الشبان اقترب منها قائلاً: هاتي النقود وسآتي لك بالطعمية .

فناولته النقود في صمت ودون تفكير . وشاهدت الشاب يخوض صراعا قبل أن يعود إليها بأقراص الطعمية الساخنة في قرطاس صغير ، فتناولتها منه مندهشة ثم سألته بلهجة اسكندرية صميمة: لماذا فعلت ذلك لأجلي؟

فأجابها باسما: لا يصح أن أشاهد بنت بلدي في حاجة للمساعدة دون أن أمد يدي إليها .

وتركها ومضى دون أن ينتظر منها كلمة شكر . . ودون أن تفهم منه معنى عبارة بنت بلدي التي نطق بها الشاب .

وغمغمت لنفسها وهي تراقب الشاب يغيب عنها: إنه شعب عجيب حقا .

وكانت في حاجة لمكان تجلس فيه لتأكل .

واختارت مقهى صغيراً كان يجلس فيه بعض العجائز والكهول . . وجلست فوق مقعد في طرف المقهى وراحت تلتهم أقراص الطعمية في نهم .

وتنبهت إلى أصوات الضحكات المكتومة التي انبعثت حولها . . وتلفتت فشاهدت الكهول والعجائز ينظرون إليها وهم يحاولون كتم أفواههم المقهقهة . وقد بدا واضحاً أن

مشـهد فتاة تأكل أقراص الـطعمية بمثل تلك اللهفـة هو مشـهد ضاحك ومثير بالنسبة لشيء يفعلونه كل يوم!

ولم تملك غير الابتسام أيضا . . وتحولت ابتسامتها الى ضحكة عالية صافية . . وخاصة عندما وقع بصرها على اللافتة المعلقة في واجهة المكان بحروف بارزة «مقهى المعاشات»!

لأول مرة تضحك من قلبها بتلك الصورة منذ وطأت هذه البلاد . . بل منذ سنوات بعيدة . فمنذ زمن لم تلمح تلك الوجوه الباسمة السعيدة . ولا تلك الشمس المشرقة . . ولم تجلس في مكان كهذا وتلقي برأسها الى الوراء في راحة وطمأنينة . . حتى في بلادها السعيدة لم تجرّب ذلك أبداً .

وأتى أحد الكهول بكوب ماء وضعه أمامها فهمست له شاكرة فهز رأسه في سرور كأنه حصل على جائزة ثمينة . وأتاها الجرسون فطلبت شايا . . واحتسته دون خوف هذه المرة . كان كل ما حولها باعثا على الاطمئنان والراحة وبه لمسة ساحرة من نوع ما . سحر ذلك الشرق العجيب!

ولمحت فتاة ممتلئة ينضح وجهها بالصحة والعافية وقد لفت جسدها كله في ملاءة سوداء لم يبن منها غير كفيها بأصابعها

المكتنزة الجميلة وقدميها اللتين ضمهما شبشب محلي بورود حمراء. . وقد تدلى من اذنيها قرط ذهبي كبير راح يتمايل راقصاً مع مشيتها.

وهتف شاب مغازلا ذات الملاءة اللف: يا سلام على بنت البلد وحلاوتها.

فابتسمت «جينا» رغما عنها. . واغرقت في الضحك عندما تخيلت نفسها في «ملاءة لف» لو أنها بقيت في تلك البلاد ولم تغادرها مع والدها!

ونهضت لتدفع ثمن الشاي، ولكن الجرسون أشار الى أحد الكهول قائلاً: لقد دفع عنك ثمن الشاي.

فسألته في دهشة: لماذا. . إنه لا يعرفني؟

فاقترب منها الكهل متوكئا على عصا وبوجه باش قائلاً: أنت ضيفة. . وللضيف إكرام خاص.

فسألته مندهشة: وكيف عرفت أنني ضيفة؟

أجابها بابتسامة حنون: إنها طريقتك في مراقبة الناس والتهام الطعام. . كأنك غبت عن «الإسكندرية» أعواما طويلة ولكن بقي في قلبك اللهفة والحب لها. . فما أن احتوتك أحضانها

الدافئة مرة أخرى حتى فاض نهر مشاعرك تجاهها.

ابتسمت رغما عنها . .

كانت كلمات الكهل كما لو أنها أزاحت ستارة عن عينيها مفسحة المجال لمشاعر كتمتها بإرادتها ورغما عنها . وتنفست بعمق وهي تتأمل كل شيء حولها.

لأول مرة أحست أنها وسط الناس تعرفهم وتألف إليهم . . أناس يحبونها دون أن تكون هناك مصلحة خاصة تجبرهم على التظاهر بحبها.

وغادرت المقهى في طريق الكورنيش.

كان البحر عاليا وأمواجه تلقي برذاذها الى الطريق . . وبللتها قطرات المياه ولكنها لم تبالِ وبدت مثل طفلة تلهو وسط المياه.

وتذكرت طفل الأمس الذي شاهدته من نافذتها يلهو وسط رذاذ المياه . . لم يكن طفلا مشرداً برغم ملابسه الفقيرة . . بل كان طفلا يمارس ألعاب طفولته كأي طفل آخر في العالم . . حتى في عالمها البعيد السعيد.

وغمغمت لنفسها في بعض التأسف وهي تراقب سحابات الأمواج البعيدة: يبدو أنني تسرعت في الحكم على هذه البلاد وأهلها.

وأسرعت الى الفندق. . كان هناك شخص تود التحدث إليه، وتأكلها رغبة في الاعتذار له عن سوء ظنها السابق.

ورفعت سماعة تليفون حجرتها تطلب رقم خدمة الغرف. . وجاءها صوت الموظف المسؤول متسائلاً فقالت في لهفة: أرجو أن تبعثوا لي بشاي ساخن مع «محمود عزمي».

ولكن الصوت أجابها من الطرف الآخر: إن «محمود عزمي» في إجازة. . سنرسل لك الشاي مع شخص آخر.

كان الرد صدمة لها فتكورت عيناها بأطياف من خيبة الأمل والضيق. وأعادت السماعة في تقطيب. كانت قد فقدت الرغبة في الشاي، أو في أي شيء آخر. وتمددت فوق فراشها محدقة في صورة «نفرتيتي» المعلقة على الجدار.

وتساءلت إن كانت هي من نسل تلك الملكة العظيمة، ولذلك تشبهها هذا الشبه الغريب؟

وتساءلت أيضاً إن كانت قد عادت الى جذورها الحقيقية. كما قال ذلك الكهل الذي لا تعرفه؟

صفعة دامية

وانقضى أسبوع كامل بعد ذهاب «جينا» إلى المحكمة من أجل استخراج إعلام الوراثة . . دون أن يتمكن محاميها من استخراج الشهادة، وقال لها أخيرا في أسف: يبدو أننا كنا متفائلين أكثر من اللازم، فاستخراج هذه الشهادة قد يستغرق أسبوعا آخر . . وبقية الإجراءات قد تستغرق شهرا بعد ذلك .

وكادت تجن . . وصاحت فيه: ليس لدي وقت . . إن وقتي غالٍ ولا يمكنني الانتظار كل هذه المدة .

ولكنه هز كتفيه في يأس قائلاً:

ـ ليس في استطاعتي أن أفعل شيئا لأجلك فقد بذلت كل ما في وسعي .

صاحت به في غضب:

ـ أليس لديكم أي إحساس بالوقت؟

قال شارحا:

ـ هناك اجراءات تستغرق وقتا .

ضاقت عيناها في غيظ وثورة مزمجرة:

ـ أنتم تتفنون في إهدار الوقت وليس لديكم أي إحساس بأهمية أي شيء في هذا العالم . . ولهذا يتقدم العالم كله حولكم وأنتم تزحفون غير مبالين .

هز المحامي رأسه بلا مبالاة قائلاً:

ـ لست مُصلحا اجتماعيا لتخبريني بذلك . . وإذا كنت متعجلة يمكنك عمل توكيل لي للقيام باللازم والسفر و . . .

ولكنها قاطعته صائحة: هل تظنني من البلاهة بحيث أضع عنقي بين يديك . . فتستولي على تركة أبي بحيلة قانونية قذرة بعد سفري؟

هب المحامي واقفا في غضب صائحا: أنا لا أسمح لك بمثل هذه الأقوال .

ودق مكتبه بعنف مضيفا: ومنذ هذه اللحظة سأعتبر علاقتي بك وبقضيتك قد انتهت .

صاحت به في غضب أشد:

ـ لست أبالي . . بمالي يمكنني شراء خدمات مائة محامٍ . . والآن أعطني كل أوراق أبي .

وغادرت مكتبه حانقة ثائرة وهي تقبض على أوراق الملكية في عنف . وسارت في الطرقات وهي تغلي كأنها ترغب في أن تكلم شخصا ما . ووصلت الى الفندق سيرا على قدميها . وكان أول ما فعلته أن ادارت قرص التليفون طالبة محادثة «كلينتون» في «أمريكا» .

وأجابها صوته من الطرف الآخر ناعساً فقالت له : هل أيقظتك من النوم ؟ وأجابها متثائبا: هل تعرفين كم الوقت الآن عندي . . إنها الثالثة فجرا .

غمغمت في ضيق: أنا آسفة . . ولكن هناك بعض المشاكل التي أواجهها بسبب ذلك الروتين القذر في هذه البلاد . . ولن أتمكن من إنهاء إجراءات البيع قبل شهر وربما شهر ونصف .

وأتاها صوت «كلينتون» في عدم اهتمام: وما المشكلة في ذلك . . ؟ يمكنك أن تبقي في «مصر» الوقت الذي تريدينه ، وثقي أن أعمال الشركة هنا تسير على ما يرام وأنني أبذل كل ما في وسعي .

فصاحت في غضب: ماذا تقول. . إنني لم أعد قادرة على البقاء في هذه البلاد أو معاشرة هؤلاء القوم أكثر من ذلك.

وقطعت عبارتها عندما دوى في أذنيها عبر سماعة الهاتف صوت ضحكة عالية صاخبة. .

ضحكة امرأة. . وثمة شخص غاضب ينطق بكلمات مبهمة ويحاول إسكاتها وكتم ضحكتها.

اتسعت عينا «جينا» في ذهول وصاحت: «كلينتون». . من تلك التي تضحك بجوارك؟

وأجابها صوته المرتبك: لا شيء. . لا أحد بجواري. . إنه صوت التلفزيون و. .

ولكنها قاطعته صارخة: أيها القذر. . لقد وعدتني وحنثت بشأن علاقاتك القذرة. . ولسوف يكون عقابك شديداً. . وأقسم أن أطردك من الشركة وألقي بك الى الطريق.

وأغلقت السماعة في وجهه. . وخلعت الدبلة الماسية التي أهداها لها من يدها وقذفتها الى ركن الحجرة في غضب حاد.

وراحت تذهب وتجيء في الحجرة كنمرة مهتاجة. . كان كل جزء فيها مشتعلاً بالغضب.

ودق جرس التليفون بعد قليل فرفعت السماعة . . وأتاها صوت «كلينتون» عبر الأثير هاتفا: «جينا» . . أرجوك اسمعيني . . لقد حدث سوء تفاهم. و . .

ولكنها أغلقت الخط بعنف . وأحست بكراهية نحو ذلك الرجل . . وغمغمت لنفسها في غضب: كيف سايرت هذا القذر ووافقت على الزواج منه . . إن عليّ أن أعود الى «أمريكا» فورا لتلقينه درساً قاسياً . ورفعت سماعة التليفون طالبة قسم الاستعلامات لتسأل عن مواعيد الطائرات المغادرة الى «أمريكا» . وكانت المفاجأة عندما قال لها الموظف المسؤول: للأسف ليست هناك طائرات مغادرة الى «أمريكا» قبل خمسة أيام . . فهل أحجز لك مقعداً فيها؟

ولكنها أغلقت الخط في وجهه بغضب متمتمة: هل سأبقى في هذا الجحيم خمسة أيام أخرى؟

كانت تشعر أنها في قلب مصيدة جهنمية . . وكانت في حاجة لتهدأ . . ورفعت السماعة مرة أخرى طالبة مشروبا باردا .

وبعد دقائق طُرق الباب . . وأمرت الطارق بالدخول .

وخطا «محمود» الى قلب الحجرة حاملا مشروبا باردا . .

وسألها متوددا: كيف حالك الآن؟

فأجابته في سخط: في أسوأ حال .

واجهها في صمت لحظة وقد أدرك أنها تعاني من مشكلة فقال: أخبروني أنك سألت عني عدة مرات خلال الأسبوع الأخير .

أجابته في قسوة وسخرية: نعم . . فقد كنت أريد أن أعبر لك عن عظيم إعجابي بالاجراءات الروتينية السخيفة والمعقدة في هذه البلاد التي يمشي أهلها ويعملون وكأنهم يغطون في نوم عميق لا يريدون أن يفيقوا منه أبداً .

وراقبته في تهكم مضيفة: ولكن بالرغم من ذلك فإن البعض من أهل هذه البلاد غير قادر على مفارقتها!

رمقها «محمود» وقد أدرك سبب مشكلتها فقال مهدئا:

ـ إن أعصابك متوترة جداً ، ولكن ، لكل مشكلة حل .

صرخت فيه بعنف:

ـ ليس لك شأن بأعصابي ولا بأي شيء آخر . .

واقتربت أكثر متنمرة في غضب كأنه هو المسؤول عن كل متاعبها ، وقالت مزمجرة: لم تعد بي طاقة على البقاء وسط

عالمكم المتخلف الذي يكاد يدفعني للجنون ولكن للأسف سوف أعاني من إقامة إجبارية لبضعة أيام لأنه لا توجد طائرات عائدة الى بلادي قبل خمسة أيام .

رمقها وقد بدأ غضبه ينفلت من عقاله هاتفاً:

ـ ألهذا الحد تكرهين «مصر»؟

أجابته في صوت كالفحيح:

ـ وتمنيت لو أنني لم أزرها أبدا ولم تطأ قدماي أرضها .

قست ملامحه وتنمرت في غضب وقال لها:

ـ إن بلادنا ليست في حاجة أيضا لمن لا يريدها . . فمن لا يحب وطننا لا يمكن لشيء في العالم أن يجبرنا على حبه . . أو حتى احترامه . . ومن لا خير له في وطنه . . لا ينتظر أن يفيض قلبه بالخير لأي شيء آخر في العالم .

قفزت تجاهه كالمجنونة صائحة:

ـ أيها الأحمق ماذا قلت؟

ولكنه واصل بنفس القسوة والغضب:

ـ إذا كانت لديك رغبة حقيقية في مغادرة «مصر» ، فيمكنك السفر حالا الى «أثينا» أو «باريس» أو أي عاصمة أوروبية ، ومنها تأخذين طائرة الى بلادك العظيمة المتقدمة

وتتركين بلادنا الجاهلة حتى لا يصيبك ما أصاب أهلها.

صرخت فيه بثورة: لقد تجاوزت كل الحدود أيها الجاهل الغبي.

ودفعته بعنف في صدره بقبضتها الصغيرة.. وفوجئت «جينا» بالصفعة التي هوت فوق خدها.. وصاحب الصفعة يقول لها في غضب: أنا لا أسمح لامرأة أياً كانت بإهانتي.

وأصابها شلل واتسعت عيناها عن آخرهما.. وتهدجت أنفاسها في ثورة جنونية وتحسست مكان الصفعة في خدها الذي انطبعت فوقه آثار دموية للأصابع القوية. وانهارت فوق فراشها في هيستريا وراحت تصرخ وتصرخ كأنما أصابها جنون.

وتدافع الى الحجرة عدد من العاملين في الفندق على صراخها.

وأسرع إليها مدير الفندق لاهثاً. كانت «جينا» تبدو في حالة أقرب الى الجنون وقد صارت عيناها كرتين من اللهب. وتحول وجهها الى وجه نمرة أصابها سعار.

وأنشبت مخالبها في وجه «محمود» صارخة: أيها القذر.. كيف جرؤت على ذلك؟

واندفع إليها عمال الفندق يحاولون إبعادها.. ولكن

أظافرها الطويلة صنعت خدوشا دموية في وجه «محمود» الذي بقي واقفا مكانه في صمت مطبق كأنه تمثال، قبل أن يبعده زملاؤه عنها.

وتساءل مدير الفندق في جزع: ماذا حدث؟

وأجابته «جينا» في صراخ مشيرة الى «محمود» وكل جزء فيها يرتعد غضبا: هذا الشاب القذر حاول الاعتداء علي.. ولما قاومته صفعني فوق وجهي.

تعلقت عيون الواقفين نحو «محمود» الذي ضاقت عيناه أكثر وزم شفتيه بقوة دون أن ينطق بحرف.

وغمغم مدير الفندق في ذهول: «محمود» فعل بك ذلك.. مستحيل؟

عاودت «جينا» صراخها: هذا هو ما حدث استدعوا لي الشرطة.

استدار المدير نحو «محمود» وسأله في صوت لاهث: هل حاولت ذلك حقا؟

ولكن «محمود» بقي على صمته ونكس عينيه في الأرض دون أن يرد..

وزمجر مدير الفندق في غضب نحوه: لسوف تلاقي عقابا

قاسيا أيها الوغد. . فسوف أقوم بإبلاغ الشرطة لتحرير محضر بذلك وسجنك. . وسيسبق ذلك طردك من هذا الفندق.

وجذب المدير «محمود» من يده بعنف خارجا من الحجرة. . وتبعهما بقية العاملين في صمت.

وبقيت وحدها في الحجرة.

وتوقفت عن البكاء. . وجلست فوق طرف فراشها محدقة صوب البحر البعيد عبر زجاج النافذة المغلقة، وهمست لنفسها: لقد لقنت هذا المغرور المتعالي درسا قاسيا لن ينساه عمره كله.

وأضافت وهي تحز على أسنانها: وبعد الآن لن يفاخر بشهادته بعد أن يذوق مرارة السجن ويتهدم مستقبله تماما.

وانفجرت في ضحك هيستيري.

ومن وسط ضحكاتها راحت تشهق. . ثم انخرطت في بكاء مرير.

هجوم في الظلام

وبعد قليل جاءها ضابط حرر محضرا أصرت فيه على أن «محمود» حاول الاعتداء عليها.

ووقعت فوقه بحروف اسمها الامريكي دون ان تشعر بأي تأنيب للضمير وحدقت غاضبة في الضابط وهي تقول له: إذا لم تسجنوا هذا المجرم سنوات طويلة فسأشكو الى سفارتي، وقد يتسبب ذلك في أزمة دبلوماسية باعتباري مواطنة أمريكية!

فواجهها الضابط في تقطيب قائلا: ثقي أن القانون سيأخذ مجراه دون الحاجة الى تدخل أي جهة خارجية.

وفكرت بعد أن غادر الضابط حجرتها في أنه كان من الغباء أصلاً مجيئها الى تلك البلاد، وأن التفكير المنطقي كان يحتم عليها أن تعهد بالقضية إلى أحد مكاتب المحامين في «نيويورك» والذي يمكنه إرسال أحد مندوبيه لـ «مصر» لإجراء

كل الإجراءات القانونية وإتمام عملية البيع دون حاجة منها لأن تغادر «أمريكا» .

وفكرت في أن هذا هو ما ستفعله بعد أن تغادر «مصر» في أسرع وقت وتخرج من تلك المصيدة التي أتت إليها بإرادتها .

وبقيت طوال الليل تنتابها الكوابيس ، وخيّل إليها أنها لمحت وجه والدتها يطل عليها من ركن الحجرة في نظرة لائمة حزينة . . وكانت تظن أنها نسيت ملامحها منذ سنين ، ولكن الملامح كانت واضحة في ذهنها بطريقة غريبة . . وتنفست الصعداء حين أطل الصباح برأسه . . وغادرت الفندق سريعا الى أقرب شركة سياحة .

كانت هناك طائرة ستقلع الى «باريس» في الصباح التالي من مطار «القاهرة» . فقالت «جينا» للموظفة المسؤولة في لهفة: أرجو حجز مقعد لي فيها . . وأن تقوموا بالبحث وسط شركات الطيران التي لها طائرات تقلع غدا من «باريس» بعد وصولي هناك ، وحجز مقعد على أول طائرة ستغادر «باريس» الى «نيويورك» .

وبعد عشر دقائق من المحاولات قالت لها: لقد وجدنا طائرة ستقلع من «باريس» غدا في الثانية ظهرا وتصل الى «نيويورك» مساء .

فهتفت في لهفة: أرجو حجز مكان لي عليها بأقصى سرعة.

وخلال دقائق كانت تتسلم التذكرة وإشعار الحجز..

وغادرت الشركة وهي تشعر أنها حرة.. طليقة.. وسارت في الشوارع والطرقات بلا هدى..

وتذكرت وجه أمها الذي أطل عليها وسط اليقظة والنوم في المساء.. وارتعد بدنها وفكرت في لوم وألم كيف تزور «الإسكندرية» ولا تلقي نظرة على قبر أمها.

وأشارت الى أول «تاكسي» مر بها، وقالت لسائقه: خذني إلى المقابر.

وأغمضت عينيها في «التاكسي» وهي تشعر أن الزمن عاد بها الى الوراء تسعة عشر عاما.. عندما كانت في الثالثة من عمرها وقبل أن تغادر «الإسكندرية» لآخر مرة مع أبيها.. وقد وقف الاثنان أمام تلك المقبرة الفقيرة التي واريا فيها أمها التراب، وراح أبوها يمسح دموعه متهدجا وهي ترمقه في دهشة غير مدركة مشاعر الموت واليتم.

أحست أن تلك الأيام قد عادت فجأة. وأمام أسوار المقابر هاجمتها مشاعر حزينة، ولكن عينيها بقيتا بلا دموع كأنهما كرتان من الرخام.

واشترت باقة ورد وراحت تجول بين اللحود مفتشة بعينيها حتى توقفت أمام ذلك القبر الذي نقش عليه بحروف متآكلة اسم أمها وتاريخ الوفاة.

كانت ثمة باقة يابسة من الورد فوق المقبرة. . وثمة تواريخ بخط باهت فوق لحد المقبرة.

كانت الكتابة بخط والدها. . وتلك تواريخ تحدد مواعيد زيارته للمكان. .

فجأة أدركت السبب الحقيقي لسفر والدها الى «الاسكندرية» كل عام. . كان يأتي ليزور قبر والدتها ويضع باقة ورد فوقه. . ولم تكن تلك المشاريع والأعمال في «الاسكندرية» غير سبب زائف أمامها من أجل سفره دون أن يبوح لها بالحقيقة.

وهمست لنفسها في مرارة: لقد كان أبي يحبها أكثر من أي شيء في العالم. . وربما لأجل ذلك لم يتزوج بعدها. وكان يتمنى أن أزور معه «الاسكندرية». . ولكن قلبي لم ينطو على نفس الحب لذات المرأة، فلم تتجه بوصلتي الى نفس المكان أبداً.

فجأة انبعث صوت حنون رقيق من مكان قريب. . كان

ثمة شيخ معمم ضرير، قد جلس متربعاً يتلو آيات من القرآن الكريم في صوت رخيم.

كان الصوت عذبا.. عامرا بالسكينة والطمأنينة.. والآيات التي يتلوها كأنها بلسم أحست بها تتسلل الى قلبها وتحرك مشاعرها الخامدة وتبعث فيها الحياة مرة أخرى.

ولم تشعر إلا وهي تذرف الدموع.. حركت آيات الذكر الحكيم خلايا قلبها واذابت الأحجار الرخامية في مآقيها فانسالت منهما دموع ساخنة موجعة.

وهرعت تغادر المكان، كأنها تهرب من نفسها.

واتجهت الى قلب المدينة مرة أخرى والرياح تغسل وجهها وتجفف دموعها.. دون أن تخفف من تفجير مشاعرها.

وفجأة بدأت السماء تهطل.. وسرعان ما خلت الشوارع والطرقات من المارة ولكن «جينا» واصلت سيرها تحت الأمطار غير عابئة بالبلل الذي أصابها.

كان بداخلها ندم يعذبها لأنها ظلمت إنسانا وستذهب به الى السجن.. بسبب إحساسها بأنه أهدر كرامتها وأهانها.. ولكنها تحسست خدها.. كانت الصفعة لا تزال تؤلمها منذ الأمس، وغمغمت لنفسها في غضب: سيكون هذا درسا

قاسيا لهذا الغبي لكي يعرف أن المرأة في بلاد أخرى ليست جارية أو خادمة تتحمل الإهانات في صمت ودون شكوى.

وقادتها قدماها الى نفس المقهى الذي جلست فيه من قبل. كان خاليا إلا من كهل وحيد في ملابس ثقيلة ومعطف قديم حبسته الأمطار داخل المقهى فلم يتمكن من مغادرته، وبقي يراقب المطر كطفل شقي أمتعه أن يمارس لذة مفقودة. كان نفس الكهل الذي طلب لها شايا من قبل ولكنها تجاهلته كأنها لا تعرفه، فلم تكن مشاعرها تسمح لها بأن تخاطب إنسانا، أو تنسج معه حواراً من أي نوع.

وجلست وطلبت شايا.. وقبل أن تحتسيه أحست أنها ترتجف بشدة.. وتنبهت الى أن ملابسها قد تبللت تماما وأنها تقطر ماء.

وزاد ارتجافها وشملتها رعدة بسبب ملابسها الخفيفة، وغمغمت لنفسها في ألم:

سوف أمرض.. هذا لا شك فيه.. سأصاب ببرد وربما لا أستطيع أن أسافر غدا.

وأمسكت برأسها مفكرة في غضب بأن الأمر سيصبح كارثة لو أن طائرة الصباح فاتتها بسبب ذلك البرد اللعين وتصرفها الطائش وسيرها تحت الأمطار.

واقتـرب منهـا الـكهل وهو يسـتند على عـصـاه ، ووقف بجوارها ثم ربت فـوق كتفـها فأدهشهـا تصرفه ، وفـوجئت به يخلع مـعطفه الثـقيل مـن فوق كـتفـيه ويمده لهـا قائلا: خـذيه يا ابنتي وتدفئي به .

غمغمت في دهشة: ولكن . .

ولكنه واصل في إلحاح: خذيه فستمرضين .

قـالت لاهثـة وهي تلمس المعطف الثـقـيل الدافئ بأصـابعهـا: ولكنك ستمرض أيضا بدونه .

فقـال في طيبة: أنا سـأبقى داخل المقهى ولن أغـادره قبل أن تتوقف الأمطار . . أما أنت فربما كنت متعجلة ولا وقت لديك للانتظار .

رمـقتـه وهي توشك على البكاء فـقال: إنـه المعطف الوحـيـد الذي أملكه ، وسـأكـون سعيـداً إذا أمكنك إعـادته لي في أي وقت آخر ، وإن لم تتمكني من ذلك فلا بأس .

هزت رأسهـا في غيـر اقتناع وفكرت في أن الحل قـد يكون صفـقة مربحة للـطرفين . فأخرجت من حـقيبتـها ثلاثين دولارا مـدتها الـى الكهل قائلة: سأشـتـري منك هذا المعطف ، وبهـذا المبلغ يمكنك أن تشتري واحدا جديدا أفضل منه .

ولكن عيني الكهل فاضتا بنظرة حزينة وقال: لا يا ابنتي . . أنا لا أبيع ملابسي . . ولكني أشفقت عليك من البرد والمرض . . ولم أعرض مساعدتك لأجل أن أحصل على بعض المال .

تجلت في عيني «جينا» نظرة معتذرة وهمست: أنا آسفة .

ولم تجرؤ على أن ترفع عينيها الى وجه ذلك الكهل الطيب . . وغادرت المقهى وهي غارقة في الدفء والراحة بعد أن وضعت المعطف الثقيل فوق كتفيها . وأشارت لأول «تاكسي» مرّ بها طالبة من سائقه أن يعود بها إلى الفندق .

ونامت حتى المساء نوما عميقا كأنها لم تنم منذ دهر . .

وأفاقت على صوت جرس الهاتف . ورفعت السماعة . كان «كلينتون» على الطرف الآخر ، وقال في صوت أقرب الى التوسل: «جينا» . . كيف حالك . . هناك خبر سار أود أن أنقله إليك ، فقد أشهرت إسلامي منذ ساعات في «المركز الإسلامي» بـ «نيويورك» ، وقد أردت إخبارك بهذه الأنباء الطيبة حالما تعودين لمنزلي . . حتى لا يكون هناك أي عائق لزواجنا بعد عودتك .

كان غضبها نحوه قد انطفأ فقالت في صوت بارد: هذا خبر جيد بالفعل .

فقال متشككا: أتعنين أنك لست غاضبة مما حدث في المحادثة السابقة؟

قالت بنفس اللهجة الباردة: لا . . لقد نسيت هذا الأمر .

هتف في سرور: هذا رائع . . أسرعي بمغادرة «مصر» والعودة الى «نيويورك» فقد اشتقت إليك كثيرا .

أجابته في هدوء:

ـ سأصل الى «نيويورك» مساء غد .

قال في لهفة عبر الأثير:

ـ سأنتظرك في المطار لنعقد زواجنا على الفور في نفس الليلة .

أجابته دون انفعال أو أي مشاعر:

ـ أوكي . . مع السلامة .

وأعادت السماعة مكانها . . لم يكن هناك ما تغضب بسببه ، فقد كانا طرفين في صفقة وهي قد ارتضت شروطها فليس لها أن تغضب . .

لم تكن هناك أهمية للمشاعر ولا لذلك البرود والاحتقار الذي صارت تحسه تجاه ذلك الرجل الأشقر ذي الشارب الوسيم . . كانت ـ كما قال لها ـ فتاة عملية جداً ، وعلى المشاعر الا تفسد علاقات العمل!

ونهضت تبحث عن الخاتم الماس الذي طوّحت به في ثورة غضبها، فعثرت عليه في ركن الغرفة، فتأملته لحظة ثم وضعته في أصبعها كما كان.

وتذكرت صاحب المعطف الكهل.

كان عليها إعادته إليه في المقهى قبل سفرها في الصباح.

وكان الجو دافئا في الخارج فاستقلت «تاكسي» الى ذات المقهى.

ولم تجد الكهل هناك فدفعت بالمعطف الى الجرسون قائلة: أنت تعرف صاحب هذا المعطف.. إنه ذلك الكهل الذي أعطاه لي منذ ساعات.. وأرجو أن تعيده إليه مع خالص شكري.

وتركت المقهى وهي تشعر أن لا شيء صار يربطها بهذا المكان أكثر من ذلك.. وأنها سددت آخر ديونها لأصحابه.

كان الدفء والسكون حولها يغريانها بالتجول قليلا وإلقاء نظرة أخيرة على المكان قبل أن تغادره الى الأبد. كانت حانقة على كل شيء حولها ولكن كان جزء بداخلها مستمتعاً رغما عنها.. جزء يحن الى طفولتها وإلى ذكريات قديمة انبعثت فجأة من قلب الماضي.

وسارت عائدة الى الفندق ، فخلال الأيام السابقة كانت قد اكتسبت بعض الخبرة بالطرقات والشوارع المحيطة بالفندق ، فسارت تراقب المحلات المضاءة وبعض السائرين الذين فضل أغلبهم البقاء في بيوتهم الأكثر دفئا .

وهمست لنفسها: ربما آتي ذات مرة أخرى لأزور قبر أمي في هذه المدينة .

ثم قطبت حاجبيها مفكرة في أنه من الأفضل لو قامت بنقل رفات أمها إلى «أمريكا» لتدفنها بجوار أبيها . . ويمكن لإحدى شركات الخدمات في «أمريكا» أن تقوم بذلك ، فلا تكون هناك حاجة لأن أعود الى «مصر» مرة أخرى .

وتوقفت في حيرة عندما أحست أنها فقدت طريقها وطالعتها العتمة حولها .

وتنبهت الى أنها دخلت شارعا مظلما يخيم عليه سكون المقابر . . ولم يكن فيه أي ضوء أو حركة .

وانتابتها قشعريرة وتساءلت إن كانت نهاية الشارع تؤدي الى طريق الكورنيش أم لا . . ولكن وقبل أن تتجه إليه توقفت سيارة على مسافة قريبة منها في الظلام ، وقفز منها شخصان يبدوان كشبحين متلصصين .

وشهقت «جينا» في ذعر عندما سقط ضوء مصباح شاحب بعيد على وجهي راكبي السيارة. . كانا شابين في مقتبل العمر يبين على ملامحهما الإجرام والشر، وقد استل كل منهما سكينا في يده.

تراجعت «جينا» في ذعر. . ولكن أحد الشابين أسرع يقطع عليها طريق العودة مزمجرا في صوت قبيح: إنك لن تستطيعي الهرب يا حلوة. . فمن يسقط في شباكنا لا نجاة له.

ارتعدت وقالت في رعب: سوف أمنحكما كل مالي. . كل ما معي من نقود ومجوهرات خذاها ولكن دعاني ولا تمساني بأذى.

ولكن الشاب الثاني جذبها من يدها في عنف مدمدما: نحن سنأخذ مالك ومجوهراتك بالطبع. . ولكنك من الجمال والفتنة بحيث يستحيل أن نتركك تمضين هكذا دون أن نقضي معك وقتا ممتعا!

أدركت «جينا» أن لا نجاة لها إلا إذا اعتمدت على نفسها واستخدمت زجاجة الرذاذ الحارق في حقيبتها، وبحركة خاطفة امتدت أصابعها الى الحقيبة، ولكن أحد الشابين اختطفها منها في عنف قبل أن تخرج سلاحها من قلبها.

وتراجعت في رعب للوراء . . ولكن الشاب الأول اندفع إليها وشل حركتها وكمم فمها فمنعها من الصراخ ، على حين انقض عليها الشاب الثاني مهاجما كالوحش وهو يجرها نحو السيارة جراً .

المنقذ

ولكن «جينا» لم تستسلم تماما وعضت يد الشاب الذي كمم فمها فأبعد يده متألماً وأتاح لها الفرصة لأن تطلق صرخة عالية مستنجدة . .

ولطمها الشاب الثاني فوق وجهها في عنف صائحا: سوف أقتلك أيتها المرأة . . إن لم تركبي السيارة دون مقاومة .

وشعرت بقواها تخونها وأوشكت أن تفقد وعيها . . ولكن فجأة علا من الخلف صوت غاضب يقول: توقفا أيها الذئبان .

كان الصوت مألوفا لـ «جينا» بشكل ما . . ولكنها لم تمتلك القوة لترفع عينيها نحو مصدره، واستدار الشابان نحو صاحب الصوت وقد أشهر كل منهما سكينه وتراقص في عيونهما شر مستطير .

كان صاحب الصوت بلا سلاح . . ولكنه تقدم في شجاعة

نحو المهاجمين . . وعندما سقط الضوء على وجهه صرخت «جينا» رغما عنها . . كان آخر شخص تتوقع رؤيته في تلك اللحظة .

«محمود عزمي»!!

وانقض أحد المهاجمين عليه وهو يهوي بسكينته فوق قلبه ، ولكن «محمود» قفز للخلف متحاشيا السكين ، ووجه ضربة بقدمه الى معدة الشابّ فانحنى متأوها ، فعاجله بلكمة أخرى طوّحت به فوق سيارته .

وانقض الشاب الثاني على «محمود» صارخا: سوف أقتلك .

وهوى بسكينه فوق ذراع مهاجمه . . وصرخ «محمود» من الألم عندما انغرز السكين في ذراعه ومزق لحمه .

وترنح «محمود» والدماء تغطي ذراعه . . واحتبست صرخة «جينا» من المشهد الدامي . . واندفع الشاب صاحب السكين وهوى بها فوق صدر مهاجمه . .

وصرخت «جينا»: حاذر يا «محمود» .

وتنبه «محمود» في اللحظة الأخيرة فانحرف عن مسار الطعنة القاتلة ، فاختل توازن الشاب المهاجم ، فعاجله

««محمود» » بضربة بين ساقيه ، فصرخ الشاب في ألم قاتل وسقط على الأرض يتلوى .

واندفع الشاب الأول الى سيارته فادارها . . وتحرك بها فقفز نحوها الشاب الثاني وتعلق ببابها .

وسرعان ما ابتلعهما الظلام .

ووقف «محمود» لاهثاً والدماء قد أغرقته . . واندفعت «جينا» نحوه صارخة في جزع: إنك تنزف بشدة . . يجب أن تذهب الى مستشفى حالاً .

ولكنه عض شفته السفلى بأسنانه محاولاً كبت آلامه . . وهمس يقول لها: حمدا لله أنني استطعت إنقاذك في الوقت المناسب .

قالت في ذهول: إنها صدفة لا تُصدق . أن تكون في نفس المكان وتتدخل في اللحظة المناسبة أمر عجيب .

وتنبهت للخدوش العميقة في وجهه التي تركت آثاراً لن تندمل بسهولة . .

كانت أظافرها قد صنعت فيه من قبل تلك الخدوش وأدمت وجهه ، فعضت شفتيها بقسوة هاتفة: سامحني يا «محمود» . . لقد أخطأت في حقك ولم أكن أدري أنك إنسان نبيل الى هذا

الحد حتى تعرّض نفسك للقتل بعد كل ما فعلته بك.

قال هامسا وهو يعض على شفتيه من الألم: لا تشغلي أمرك بي. . والآن خذي «تاكسي» وعودي الى الفندق فربما يفكر هذان الوغدان أن يعودا لإيذائك مرة أخرى.

وأسرع يخطو في قلب الظلام حتى اختفى عن عينيها. .

وصاحت «جينا» تناديه في لوعة: «محمود».

ولكنه كان كمن ابتلعه الظلام.

وانتابتها حمى حالما أغلقت على نفسها باب جناحها. كان قلبها يتمزق لأجله. وحملقت في المرآة بجنون صارخة: أنا غبية. . غبية. . كيف فعلت به ذلك واتهمته بتهمة وضيعة وضيعت مستقبله. . كيف سمح لي ضميري أن أغش وأكذب وأخدع لأجل كرامتي.

وغمغمت في كراهية لنفسها: آه لكرامتي التي ارتضت لي الغش والخداع والانتقام الخسيس.

وأغمضت عينيها وراح جسدها يتشنج في بكاء مرير. .

كانت تتمنى لو أنها وجدته أمامها. . لو أنها تعتذر إليه. . تطلب منه أن يسامحها. . أن ينسى إساءتها له. . أن تقبل أطراف أصابعه ندما وألما. .

كان نبيلا بقدر ما كانت كاذبة ومخادعة . . وكان شهما بقدر ما أظهرت خستها ونذالتها . .

وعضت على شفتيها بقسوة وقد عادت الذكرى تهاجمها . .

تلك الذكرى التي مرت عليها سنوات ليست بعيدة . . وتمنت لو أنها بترتها من ذاكرتها وعقلها . وفتحت عينيها محدقة الى الجدران كأنها تشاهد منظراً سينمائياً . . كانت في الثامنة عشرةَ من عمرها . . بالكاد في عامها الأول بالجامعة عندما قابلت «جاك» . . كان شابا وسيما ثريا يمتلك والده نصف فنادق «نيويورك» . . ولا عمل له غير إنفاق تلك الأموال في سفه .

وأعجبت بـ «جاك» الى حد الجنون وأصرت على الزواج منه . . ولم يمانع والدها . . اشترط فقط أن يشهر «جاك» إسلامه .

وأسلم «جاك» . . وتزوجا . . وأحست أنها تعيش أياما مسروقة من السعادة التي لا مثيل لها .

كان «جاك» يمتلك آلاف الملايين . . وكان وسيما أنيقا تتهافت عليه آلاف الفتيات . . كانت تراه رجلا بحق اكتملت لديه كل صفات الرجولة . .

وذات يوم كانا عائدين من حفلة في الفجر بسيارته الفارهة . . وتعطلت السيارة في أحد الأحياء المظلمة .

ومن قلب الظلام خرج وحشان بشريان أشهر كل منهما سلاحه في يده . . وانقض الوحشان عليهما . .

وكان أول ما فعله «جاك» أن قفز في السيارة وأسرع يعدو هاربا للنجاة بحياته . . وراحت هي تصرخ وتصرخ طالبة منه إنقاذها . . ولكنه تركها فريسة للذئبين اللذين تركاها حطاما . .

ثم طلقها دون أن يشعر بأي أسف أو ندم . . أو يشغل نفسه بإيجاد تبرير لما فعله .

من وقتها كرهت كل الرجال . .

واحتقرت كل الرجال . .

الى ان تكرر نفس المشهد . . ولكن هذه المرة اندفع فارس نبيل مخاطرا بحياته لإنقاذها . .

فارس لم تكن تربطها به أي صلة . . لم يكن أخا أو زوجا أو حبيبا . .

كان فقط رجلا . .

رجل لفقت له تهمة مدمرة . . ولكنه كان أنبل وأسمى من

أن يتركها فريسة الذئاب برغم كل ما فعلته به . .

كان هذا هو الفارق بين الشرق والغرب .

وانتفض جسدها بشدة وشهقت بالبكاء . .

وشعرت بتيار جارف يسري في جسدها تجاه هذا الرجل الذي أنقذها من براثن الذئبين . . تيار من الحب الصاعق .

ولادة ثانية

بين اليقظة والنوم والحمى التي أخذتها راحت تسترجع كل ما مر بها من أحداث . . والدها الذي وارته الثرى . . والفستان الأحمر الذي ارتدته في المساء التالي . . ووجه «كلينتون» المخادع ونظرته الذئبية وصفقة الزواج التي عرضها عليها . . وصوت الضحكة النسائية الخليعة في التليفون وهو يتحدث معها . . ثم قبولها اعتذاره وارتداؤها دبلته مرة أخرى .

أخفت وجهها بكفيها كأنها صارت تكره أن ترى نفسها . . كيف ارتضت لنفسها كل تلك الأشياء . . كيف كانت بلا قلب أو مشاعر . . على استعداد لأن تبيع نفسها باسم الزواج في صفقة لأجل المال . .

كيف هانت عليها نفسها الى هذا الحد. . وهي تتحرك كأنها ترس صغير في آلة ضخمة تطحن كل المشاعر والأحاسيس في بلاد يترك فيها الأزواج زوجاتهم فرائس للذئاب ووحوش الطريق؟

ثم هبت عليها ذكرى كالنسمة اللطيفة خففت من هجير مشاعرها . .

منذ اللحظة الأولى التي حلقت فيها طائرتها فوق «القاهرة» أحست أنها ستحب هذه البلاد بأهراماتها وقلعتها وقباب مآذنها. . رغما عن كل الرفض الذي صاحبها لهذه البلاد منذ زمن طويل.

أحبت رغما عنها كل شيء في هذا الوطن. . عندما انزاحت غشاوة عينيها وأزهر قلبها بثمار الحب. .

وكان أهل الوطن هم أكثر من أحبت. .

ذلك السائق الأمين الذي رفض أن يتقاضى ثمن أمانته، على حين صور لها غرورها وتعاليها أنه لص وسفاح قد يفتك بها في أي لحظة. . وذلك الكهل الذي خلع معطفه وأعطاه لها ليقيها من المرض والبرد برغم أنه لا يعرفها، ولا يملك غيره ولا يضمن إن كانت ستعيده له أم لا . و«محمود» الشاب

المكافح العاشق لوطنه الذي لم يحتمل أي إهانة تمس هذا الوطن، وكان على استعداد في نفس الوقت لأن يضحي بنفسه لإنقاذ فتاة ناكرة لجميل الوطن وبينهما عداء شخصي، إلا أن أخلاقه أبت عليه أن يتركها في محنة.

طالعتها الوجوه الباسمة ورائحة البحر الطازجة والشوارع النظيفة المغسولة بمياه الأمطار ورائحة أقراص الطعمية اللذيذة ومقهى الكهول ووجوههم الباسمة الباشة..

وعرفت تلك اللحظة معنى عبارة «بنت البلد».. والجميع قد عاملوها باعتبارها ابنة بلدهم بالرغم من أنها جاءت بقلب موصد في وجوه الجميع.

وغمرتها مشاعر من الحب العميق لكل أولئك الناس وكل تلك الأشياء.. كأنها عادت الى الأصل.. كأنها كانت من قبل سمكة أخرجوها من نهرها الجميل وألقوها في المحيط الواسع، فظنت أنها امتلكت العالم كله ولم تستشعر قيمة مياه النهر العذب الى أن ذاقته مرة أخرى وشعرت بحلاوته.

ومن مكان بعيد سمعت صوتا ينساب عذبا رقراقا الى أذنيها من جامع قريب يؤذن لصلاة الفجر، فتسلل الأذان لتستقر كلماته في قلبها وتمنحها السكينة والطمأنينة.

ونامت وصوت المؤذن يحملها فوق وسادة خفية من الراحة تسمو بها فوق كل أوجاع وشرور هذا العالم، وتمنت لو كانت قد تعلمت الصلاة.

واستيقظت في الثامنة صباحا.

كان متبقياً على موعد طائرتها التي ستغادر مطار «القاهرة» الى «باريس» ساعتان فقط. ولكنها لم تهتم.. وقفزت من فراشها واغتسلت بسرعة.

كانت تشعر بأنها ولدت من جديد في تلك اللحظة.. وتعلق بصرها بالدبلة الماسية في إصبع يدها اليمنى فخلعتها دون تفكير ووضعتها في حقيبتها.

وأسرعت الى مكتب مدير الفندق فاستقبلها مقطّبا. وبدا لها من الواضح أنه ينتظر لحظة مغادرتها الفندق بشوق ليتخلص من مشاكلها وكراهية العاملين في الفندق لها.

وهمست تقول في ألم وخجل: إنني أريد الحصول على عنوان «محمود عزمي».

فسألها المدير متشككا: ولماذا؟

وضاقت عيناه أكثر في عداء مضيفاً: هل تنوين اتهامه بتهمة جديدة؟

عضت شفتيها في قسوة وإحساسها باحتقار نفسها يتعاظم . . وهمست تقول: سأذهب إليه لأعتذر له وأطلب منه أن يسامحني . . فقد أخطأت في حقه .

فتأملها المدير في شك عظيم متسائلاً:

ـ هل تعنين أنه لم يحاول الاعتداء عليك كما قلت؟

هزت رأسها نفيا والدموع تبلل مقلتيها وهمست باكية: لا . . لقد كنت كاذبة ، وكان من المستحيل على إنسان نبيل مثله أن يحاول ذلك .

فتأملها المدير لحظة ثم قال متعجبا: لماذا إذن اتهمته بهذه التهمة الخطيرة؟

ولكنها لم تنطق ونكست رأسها في صمت وانكسار وقال المدير في حسم: إن هناك شيئا أهم من أن تذهبي الى «محمود» للاعتذار إليه . . وهو أن تذهبي الى قسم الشرطة أولا فتتنازلي عن اتهامك ضده وتعترفي أنه لم يحاول الاعتداء عليك .

همست في لهفة: سأفعل حالا .

قال المدير محذرا:

ـ ولكن يجب ان تعرفي أن ذلك سيضعك تحت طائلة القانون بتهمة البلاغ الكاذب . وأن «محمود» سيصبح من حقه

أن يرفع عليك قضية تعويض بمبلغ ضخم .

قالت في أسى: لن يهمني ما يحدث لي . . إن ما أريده الآن بأي ثمن هو أن أصلح هذا الخطأ القاتل ولو خسرت كل مالي .

كانت لهجتها تفيض بالصدق والألم ، فحسم المدير تردده ونهض قائلا:

ـ حسنا . . سأذهب معك الى قسم الشرطة ، وبعد أن تتنازلي عن اتهامك لـ «محمود» يمكننا أن نذهب إليه معا . . فقد استرد اعتباره ومن حقه أن يعود الى مكان عمله مرفوع الرأس .

وغادر الاثنان المكان مسرعين . .

اعتراف . . بالحب

دق جرس الباب فتحرك الكهل ليفتحه . .

وفوجئت «جينا» بالكهل الواقف أمامها مستندا على عصاه وهو يتطلع إليها في دهشة أيضا بعد أن فتح الباب . . كان نفس الكهل الذي منحها معطفه من قبل في المقهى ، فسألته وهي تبتلع دهشتها: أنت . . ماذا تفعل هنا؟

فسألها وهو لا يخفي دهشته أيضاً: ما وجه الغرابة أن يكون الإنسان في بيته؟

وبدا عليه كأنه يرغب في سؤالها عن السبب في مجيئها إلى بيته ، ولا يمنعه من ذلك غير أصول الضيافة .

وجاء صوت مدير الفندق من خلف «جينا» يقول لها: هذا هو والد «محمود» . . وقد كان بطلا من أبطال حرب أكتوبر

عام ٧٣ وأصيب بشظية في ساقه فتقاعد وحصل على وسام نجمة سيناء وهو أرفع وسام يمنح للأبطال.

تأملت «جينا» الكهل أمامها وقد تضاعفت دهشتها الى حد الذهول.. كان القدر يتصرف معها بطريقة عجيبة حقا وأدهشها أن بطلا كهذا لا يملك غير معطف وحيد، على حين لا تبدو عليه أي معاناة أو سبب للشكوى، ويغمره الرضى والقناعة بنور عجيب. وقال الكهل: تفضلوا بالدخول.

واستقرا فوق مقعدين في الصالة، وقال مدير الفندق شارحا للكهل: هذه هي السيدة الأمريكية التي اتهمت «محمود» بأنه حاول الاعتداء عليها.

فرمقها الكهل بنظرة تخلو من الحقد وقد بدا كأن الصدفة الغريبة لم تدهشه.

وانفجرت «جينا» في البكاء وأخفت وجهها في نحيب قائلة: إنني لست أمريكية بل أنا مصرية.. ولقد أخطأت في حق هذا الوطن وأهله.. فكل ما قرأته وسمعته عنه كان يدعوني لأن أسمو بوطني الجديد الذي رحلت إليه وأن أتبرأ من وطني القديم.. ولقد جئت الى هذه البلاد وأنا أخشى حتى من الهواء الذي أتنفسه.. ولكن طبيعة هذا الشعب

الأصيل أذابت الجليد من فوق مشاعري ، فرأيت بعين الحب أشياء كان يستحيل عليَّ رؤيتها من قبل بعين الاحتقار والعداء .

واندفعت نحو الكهل تقبل كفيه وتغرقهما بدموعها منتحبة قائلة: سامحني يا سيدي .

ولكن الكهل اختطف يده هاتفا: استغفر الله يا ابنتي .

وربت فوق رأسها في حنان قائلاً: صدقيني ، إنني كنت واثقا من براءة ابني لأنني أحسنت تربيته وقلت له إنه ما دام بريئا فسوف يُظهر الله براءته لأن الله عادل وحق ولا يرضى بالظلم . . وعندما رأيتك في المقهى لم أكن أعرف أنك نفس المرأة التي اتهمت ابني ، وحتى لو كنت أعرف ذلك ما توانيت عن تقديم يد المساعدة لك أيضا .

وقال مدير الفندق: لقد ذهبت «جينا» الى الشرطة وتنازلت عن اتهامها لـ «محمود» وقد أثبتنا ذلك في محضر رسمي فانتهت المشكلة .

لمعت عينا «جينا» ببريق من السعادة وقالت كطفلة تكتشف عالما مثيرا: إنني منذ هذه اللحظة لم أعد «جينا» الأمريكية بل «جليلة» المصرية ، ولن أتنازل عن اسمي وجنسيتي الحقيقية أبداً .

ورفعت عينيها فشاهدت «محمود» واقفا في مدخل الصالة وهو يرمقها بعينين خاليتين من أي مشاعر للكراهية وقد تدلت ذراعه المضمدة بشاش طبي من رباط في عنقه.

قفزت «جينا» من مكانها وهرعت إليه.. وتواجها لحظة.. ارتعدت شفتاها وهي لا تجد ما تقوله.. شعرت أن كل الكلمات تموت فوق شفتيها ولا تتبقى غير نظرات العيون.. وتحرك والد «محمود» ومدير الفندق ليجلسا في حجرة أخرى تاركين لهما حرية المواجهة.

ولم تحتمل «جينا» وطأة نظرة «محمود» فنكست رأسها هامسة في رجاء وصوت متحشرج: سامحني فقد أخطأت في حقك.

قال في تسامح: لقد نسيت كل شيء.. وليس بيننا ما يدعو للكراهية.

قالت عاتبة: كان بإمكانك أن تدافع عن نفسك لحظتها وتقول إنني كاذبة وكان التحقيق سيكذّب اتهامي.

أجابها في يقين:

ـ البراءة ليست في حاجة الى لسان للدفاع عن نفسها.. والكذب والغش يقتلان نفسهما بنفسهما.. والبراءة نورها ساطع.

رفعت عينيها إليه . . كانت تشتاق الى ملامحه وأسعدها أنه في مرمى بصرها لا يبعد عنها أكثر من ذراع ، وهمست في شجن: لا أدري كيف أشكرك لأنك أنقذت حياتي .

قال في تسامح:

ـ ما فعلته لا يستحق أي شكر . . فهو واجبي الذي تحتمه عليّ أخلاقي وديني .

هزت رأسها في توكيدها هامسة بإعجاب بالغ:

ـ لا عجب أن تقول ذلك . . ووالدك كان بطلاً عرّض نفسه للموت لأجل وطنه وأبنائه . ودارت عيناها في أرجاء المكان . . كأنها تحتضن كل جزء فيه . . تقبله . . ترقد في أحضانه . . وهمست: يا لهذا الوطن الجميل الرائع . . وهؤلاء الناس الذين يسكنون ضفاف نيله وينعمون بالعيش فيه . بالدفء . . والحب . . والتسامح . . والشهامة . . والرجولة . . وكل تلك الأشياء التي لم أعرفها أو أجربها في وطني الآخر الذي لا يعرف غير لغة المال والمصالح .

أشرق وجه «محمود» وقال: إنني سعيد بكل ما أسمعه منك ، وأشعر أنني ساهمت فيه ولو بقدر ضئيل .

أضاء وجهها بنور المحبة وقالت:

ـ كنت على حق يوم قلت لي إن من يشرب من ماء هذا النيل لا بد أن يعود إليه مرة أخرى . . وهأنذا قد عدت إليه . . وإليك .

تورّد وجه «محمود» وتدافعت الدماء قوية إلى عروقه . بدا مرتبكا بعض الشيء لا يفهم ما تقصده ، وانحرفت عيناه رغما عنه الى كفها اليمنى فلمح إصبعها خاليا من الخاتم الماسي .

وهمست «جينا» مؤكدة له: لم يعد بإمكاني انكار ما أشعر به تجاهك . . فمنذ اللحظة الأولى التي شاهدتك فيها ورأيت اعتزازك بنفسك ووطنك ، نما شيء ما في صدري تجاهك ، شيء لم أستطع أن أدرك حقيقته وقتها . . وتمنيت لو أنني كنت أراك كل لحظة وأن أتحدث معك والا تغيب عن عيني ، ولكنك هدمت آمالي بتلك الإجازة المفاجئة التي قمت بها . . وعندما شاهدتك ثانية كنت ثائرة غاضبة أبحث عن إنسان أصب عليه جام غضبي . . وشاء سوء حظي أن يحدث ما حدث ، وفي ثورة غضبي من صفعك لي ، اتهمتك بتلك الأكاذيب .

استمع إليها «محمود» في صمت . . وبدا كأنه أيضا يصارع شيئا ما يود لو يبوح به . . وتندت الدموع في عيني

«جينا» وهي تواصل: وعندما شاهدتك فجأة تتقدم نحوي لإنقاذي من هذين المجرمين وتعرّض نفسك للموت بسببي بالرغم مما فعلته معك ، أدركت كم أنك إنسان نبيل . ولو طفت العالم كله فلن أجد مثيلا لك . . ولحظتها أدركت حقيقة تلك المشاعر التي نبتت في قلبي تجاهك . . اكتشفت لحظتها أنني أحبك . . أحبك أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم . . وأكثر من نفسي أيضا .

تهدجت أنفاس «محمود» ولمعت عيناه . . وتسارع نبضه وهو يقول: لا أصدق ما أسمعه منك الآن . . كأنني في حلم جميل .

همست في شجن تؤكد له:

ـ أنت أعدت لي ذاتي أو أعدت ذاتي إليّ بعد أن كنت أنكرها . . فقد جئت الى هذا الوطن غريبة كارهة فجعلتني أحبه وأكتشف كل الأشياء الجميلة فيه . . وإذا كنا قد تقابلنا لأول مرة مصادفة ، وكذلك لحظة أن أنقذتني مصادفة ، فإنني أدرك أن تلك المصادفات كانت مقدرة ومكتوبة في لوح القدر الذي تؤمنون به ، ولم يكن في استطاعتنا الهرب منها أبداً .

ولكن «محمود» فاجأها قائلا:

ـ لم يكن إنقاذي لك ليلة أمس مصادفة على الإطلاق .
تطلعت إليه في دهشة متسائلة: ماذا قلت؟
شردت عيناه قليلا وبدا كأنه يغالب نفسه للبوح بسر ثم قال: اعترف لك أنني منذ اللحظة الأولى التي شاهدتك فيها أحسست أنني أرى وجها مصريا صميما . . فتاة ابنة بلد حقيقية . . وضايقني إنكارك لذلك ومحاولتك تشويه كل ما ترينه جميلا في بلدنا . . ولكنني برغم ذلك ومنذ اللحظة الأولى كنت قد وقعت في هواك بالرغم من اللهجة الخشنة والمتحدية التي واجهتك بها .
تطلعت إليه في ذهول غير مصدقة ، ولكنه واصل: ربما حدث ذلك لأنك كنت تشبهين فتاة أحببتها في مراهقتي وأبعدت الأيام بيننا . . وربما لأني أحسست بوحدتك وحيرتك فانجذبت إليك . . وربما بسبب أشياء أخرى مجهولة فالحب ليس مُعلَن الأسباب دائما . . ولذلك عندما زارك الطبيب وأوصى براحتك وتناولك الدواء تعمدت أن أبقى لخدمتك برغم انتهاء وردية عملي . . ولكنني لم أستطع مواجهة نفسي عند أول لحظة حساب . . فانسحبت لأنني أدركت اننا من عالمين مختلفين . . خاصة وقد رأيت في إصبعك خاتم الخطوبة .

قالت بدهشة: لا افهم ما تعنيه.

هرب بعينيه بعيدا وواصل:

ـ تلك الاجازة التي حصلت عليها لمدة أسبوع، كانت بغرض أن أتخلص من إعجابي بك وانجذابي إليك، فأعود لعملي وأجدك قد غادرت «مصر» فتنتهي حيرتي.. ولكنني وجدتك ما تزالين مقيمة في الفندق.. وأصابني ارتباك حاولت إخفاءه ولكنني لم استطع تحمل سماع إهانتك لوطني.. وفامتدت يدي رغما عنها لصفعك.

واحتقن وجهه وصمت لحظة وهو يرطب شفتيه، وهمس يقول: لحظتها تمنيت لو أن يدي قطعت ولم تمتد إليك بالأذى، ولهذا فعندما اتهمتني بأنني حاولت الاعتداء عليك رفضت أن أنكر تلك التهمة ورأيت فيها عقاباً عادلاً لصفعتي لك.

شهقت «جينا» بفرحة مباغتة:

ـ آه.. لا أكاد أصدق ما أسمعه.

نكس «محمود» رأسه وأكمل:

ـ وبعد أن أفرجت عني النيابة لحين تقديمي للمحاكمة حذرني الكثيرون من خطورة تلك التهمة ونصحوني أن أذهب اليك وأعتذر لك لتتنازلي عن اتهامك.. ولكنني لم استطع

أبداً أن أفعل ذلك . . لم تكن لديّ قدرة على مواجهتك أو التطلع الى عينيك . . وخشيت أن يفضحني حبي إن واجهتك فتسخرين مني ومن حبي فتزداد آلامي . . ولكنني في نفس اللحظة كنت أرغب في رؤيتك للمرة الأخيرة قبل سفرك ، فتواريت بعيداً عن مدخل الفندق أراقب الداخلين والخارجين في المساء ، إلى أن شاهدتك تغادرين الفندق وتذهبين الى ذلك المقهى وتعيدين معطف أبي دون أن أدري أنك قد تعرفت إليه أيضا . وسرت خلفك من بعيد في ذلك الشارع المظلم الى أن رأيت هذين الشابين يحاولان الاعتداء عليك فأسرعت لنجدتك دون أن أفكر لحظة واحدة في أن القتل قد يكون مصيري . . فقد كان كل ما يهمني هو حمايتك بأي ثمن .

هزت «جينا» رأسها غير مصدقة . . تصاعدت أنفاسها الى حد اللهاث وهمست: إنني لا أكاد أصدق ما أسمعه . . كأن كل أسباب السعادة قد تجمعت بين أصابعي في هذه اللحظة . . سعادة لم أجرّبها من قبل أبداً .

تطلع إليها «محمود» في ألم حبيس وقال:

ـ ولكنها سعادة ستزول سريعا . . فسرعان ما تعودين الى «أمريكا» وتنسين كل شيء عن هذا الوطن وكل من صادفتِ من أبنائه .

ولكنها تشبثت بأصابعه في لهفة كأنها تؤكد ما ستقوله وهتفت:

ـ لا يا «محمود» فإنني لن أغادر هذا الوطن ثانية . . فهنا ولدت وهنا سأموت . . وإذا كان كل من صادفتهم عاملوني مثلما يعاملون بنت البلد ، فسأبقى بينهم جميعا وأعتبرهم أهلي وناسي وأحيا وسطهم كابنة بلد حقيقية .

وفي صوت لاهث أضافت: سوف أصفي كل أعمالي في «أمريكا» وأستثمر كل أموالي في «مصر» . . فمنذ هذه اللحظة لم يعد هناك شيء يربطني بـ «أمريكا» ، بعد أن اكتشفت أن جذوري الحقيقية هنا مغروسة في هذا الوطن ونيله .

وتشابكت أصابعهما في لهفة ، فقال «محمود» وهو يتملى من ملامحها التي يعشقها: أخشى أن تندمي يوما على هذا القرار .

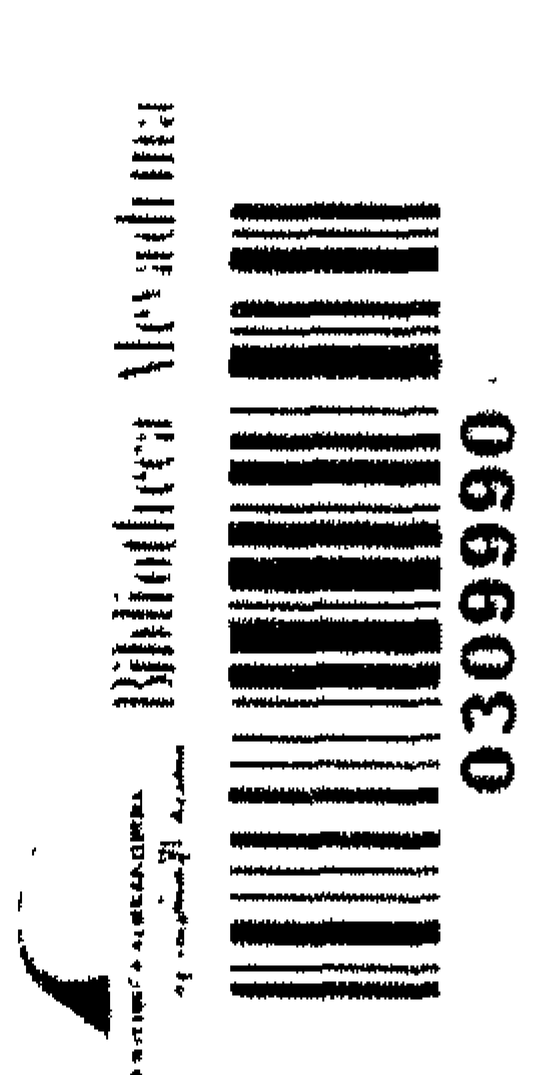
فتشبثت بأصابعه أكثر وهمست تقول في شجن عظيم: من يندم على العيش في هذا الوطن فهو لا يستحق العيش فوق ترابه كما قلت أنت . . وبعد الآن أعدك ألا يفرقنا شيء أيها الحبيب .

وأغمضت عينيها في نشوة . . كأنها تخشى أن تفلت منها لحظة سعادة بعد الآن .

بنت البلد

اضطرت الظروف القهرية «جينا» لأن تترك بلادها «أمريكا» في رحلة قصيرة الى «مصر» .. فجاءت وقلبها مغلق على كراهية ذلك الوطن .. الذي كان والدها يحمل جنسيته. والذي تنكرت له منذ اللحظة الأولى .. وسخرت من أهله.

ولكن أحوال القلب تتبدل دائماً «جينا» في عشق من كرهت .. فهل عنها الوطن .. والحبيب؟



دار الجيل
للطبع والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان